الفصل الأول

في نهايتي توجد بدايتي ... هذا تعبير سمعت الكثير من الناس يقولونه . ولكن ما معناه ؟

هل توجد نقطة معينة يستطيع أن يضع الإنسان إصبعه فوقها ويقول : " بدأت القصة ذلك اليوم في ذلك المكان والزمان ومع ذلك الحدث ؟ "

هل بدأت قصتي عندما وقع بصري على إعلان لبيع بيت " القلاع " بالمزاد ؟ كانت في الإعلان صورة للبيت الثمين الذي يرجع تاريخه إلى ثمانين وربما إلى مائة عام .

لم أكن أعمل شيئا محددا " كنت أسير في الشارع الرئيسي " لكنجستون بيشوب " مكان لا أهمية له . عندما رأيت الإعلان .... لماذا ؟

أهي إحدى لعب القدر ؟ أم أنها ضربة من ضربات الحظ التي لا تتكرر مرتين؟

يمكنك أن تنظر إلى الأمر من كلا الاتجاهين . أو ربما تستطيع أن تقول : إن اللقاء مع " سانتونكس " كان نقطة البداية ... أستطيع أن أغمض عيني وأراه .. بخديه المتوردين وعينيه اللامعتين وحركة يده الرقيقة وهو يرسم ويصمم خرائط المباني بأبعادها وارتفاعاتها . بيت واحد على وجه الخصوص .... بيت رائع .. بيت يكون رائعاً عندما تمتلكه .

كان حديثي مع " سانتونكس " يدور حول ذلك البيت الجميل ... كان حلما جميلا يتركز حوله حديثنا . البيت الذي سوف يبنيه لي " سانتونكس " لو أن الأجل امتد به إلى أن يتحقق الحلم .

البيت الذي أعيش فيه مع الفتاة التي أحببتها . وكما يقولون في قصص الأطفال : " نعيش في سعادة أبدية " هكذا بدأ الأمر معي ... الشوق إلى شيء ليس من المحتمل أن أناله قط . إذا كانت هذه قصة حب – وهي كذلك – فلماذا لا أبدأ من حيث رأيت " إيللي " لأول مرة واقفة بين أشجار الشربين في أرض الفجر ؟ أرض الفجر . نعم ، وربما كان من الأفضل أن أبدأ من هناك بعد قراءة

إعلان المزاد ، رأيت رجلا شيخاً من أهالي المنطقة وسألته :

– كيف رأيت هذا البيت المسمى بـ " القلاع " ؟ نظر إلي الشيخ نظرة غريبة وقال : إن أهالي المنطقة لا يعرفونه بهذا الاسم " وإنما بـ " أرض الفجر " وعندما سألته عن سبب هذه التسمية قال :

لذلك قصة لا أعرفها تماما فالأقوال تختلف .. على أية حال يقع البيت في المكان الذي تحدث فيه الحوادث .

– حوادث السيارات ؟

– كل أصناف الحوادث ... معظمها اليوم حوادث سيارات ... إنه ركن ملعون .. أوصى المجلس القروي بوضع لافتة تحذر من الخطر . ولكن بالرغم من ذلك تقع الحوادث وسألته : لماذا الفجر ؟

– يروى أن الأرض كانت للفجر في وقت من الأوقات وعندما طردوا منها أطلقوا عليه اللعنة . ضحكت . وقال الشيخ : إننا رجال المدن نضحك لأننا لانعرف أن بعض الأماكن ملعونة حقا ، وأن اللعنة قد حلت على ذلك المكان .. وقد لقي البعض مصرعهم وهم يكسرون الحجارة من المحجر للبناء ، أشار الشيخ نحو التل المغطى بأشجار الصنوبر قائلا :

– هناك لقي " جيوردي " الشيخ مصرعه ... في أرض الفجر . نعم أعتقد أن هذه كانت البداية .. عندما أرتب الذكريات في ذهني .. لا أدري ما إذا كنت سألت وقتها أو بعد ذلك عما إذا كان الفجر لا يزالون يعيشون في المنطقة ، وأخبرني الرجل أن عددهم لم يعد كبيرا لأن رجال الشرطة دائما يضطرونهم إلى الرحيل، وقلت :

– لماذا لا يحب أحد الفجر ؟

– إنهم لصوص .. هل أنت واحد ممن تجري في عروقهم دماء الفجر ؟

[illegible] بالنفي ، وفكرت في أن الرجل كان على حق في تفكيره لأنني أشبه الفجر !

وربما كان ذلك الذي جذبني لاسم أرض الفجر ...

وشاهدت الطريق التي تؤدي إلى التل لكي أتمكن من مشاهدة البحر والسفن ..

لقد كان المنظر رائعا وفكرت في نفسي وأنا أمتلك هذا المكان .. أرض الفجر – كانت فكرة سخيفة – وعندما مررت بالشيخ في طريق عودتي قال لي :

– إذا كنت ترغب في رؤية الفجر . فهناك المسز " ليي " العجوز .. أعطاها الميجور كوخا لتعيش فيه .. وسألته عمن يكون ؟ وقال الشيخ بدهشة :

– الميجور " فيلبيوت "طبعا لا أعرفه !

أدهشه أنني لا أعرف الميجور ، وفهمت أن الميجور هو الرب المحلي .. وأن أسرة " فيلبيوت " عاشت هنا منذ أجيال طويلة ... تمنيت للشيخ يوما طيبا ، وهممت بالانصراف عندما قال :

– يقع كوخ العجوز . في نهاية الشارع ... ربما رأيتها أمام باب كوخها ... لا تحب البقاء بالداخل . هذه عادة الغجر . مشيت وأنا أفكر في أرض الفجر ، وكدت أنسى ما قيل لي .. عندما رأيت امرأة عجوزا طويلة سوداء الشعر . تحملق في وجهي وراء سور حديقة .. أدركت على الفور أنها المسز " ليي " .. توقفت لأتحدث معها وقلت : سمعت أنك تستطيعين أن تحدثيني عن ذلك البيت.. " أرض الفجر " فقالت وهي تزيح خصلة متهدلة من شعرها :

– لا شأن لك بذلك أيها الشاب ... استمع إلي ... أنت فتى حسن المظهر .. لاخير يأتي من وراء أرض الفجر .

– أليس البيت معروضا للبيع ؟

– نعم .. وأحمق ، ذلك الذي يفكر في شرائه .

– من الذي يفكر في شرائه ؟

– أحد البنائين .. أكثر من واحد ...سوف يباع بثمن زهيد ...

سألتها بفضول : ولماذا يباع بثمن بخس رغم أن الموقع ممتاز ....

لم تجب عن هذا السؤال ، وقلت لها :

– لنفترض أنه يبيع بثمن زهيد .... ما الذي سوف يفعله المشتري بالبيت ؟

ضحكت العجوز ضحكة ممقوتة وقالت :

– سوف يهدم البيت القديم ليبني عشرين .. وربما ثلاثين بيتا مكانه .. ولكن اللعنة سوف تحل عليها كلها .. لن ينال أي إنسان خيرا من أرض الفجر ..

ومن الأفضل أن يتركوها وشأنها .. سوف ترى أن أحدا لا يحالفه الحظ في هذا المكان .

ضحكت العجوز مرة ثانية وقالت بحدة :

– لا تسخر أيها الشاب ، لم يجد الحظ له مكانا هنا .. لا في البيت ولا في الأرض .

– ما الذي حدث في البيت ؟ لماذ ظل خاليا لمدة طويلة ؟ لماذا تركوه إلى أن تهدم؟

–آخر الناس الذين عاشوا فيه .. ماتوا جميعا ...

سألتها بفضول : كيف ماتوا ؟

– من الأفضل ألا نتكلم في هذا الموضوع ...

قلت لها : إنها تستطيع بالرغم من ذلك أن تروي القصة ... تغيرت لهجتها وهي تقول برجاء : – ما رأيك في أن أقرأ طالعك أيها الفتى ؟ ضع في يدي عملة فضية .. أنت واحد ممن ستتحقق لهم آمال كبيرة ذات يوم .. – قلت لها إنني لا أومن بقراءة البخت وليس معي عملة فضية ، قالت إنها على استعداد لقراءة طالعي مقابل ستة بنسات فحسب . ناولتها ستة بنسات وتأملت النقود برهة ثم أخذت كفي بين يديها وظلت صامتة برهة ، ثم دفعت يدي بعيدا وهي تقول بخشونة :

– إذا كنت تعرف صالحك فاترك أرض الفجر الآن ، ولا تفكر في العودة إليها مرة أخرى ! عندما سألتها عن السبب قالت :

– لأنك إذا عدت فسوف تجد الأحزان والخطر في انتظارك .. انس أنك رأيت هذا المكان .. إنني أحذرك .

قالت ذلك وانسحبت نحو الكوخ وصفقت الباب وراءها بعنف .. لست إنسانا متشائما .. إنني أومن بالحظ .. ولكن داخلني إحساس بعدم الارتياح لما قرأته العجوز في كفي ... إنني أعتبر قراءة البخت مجرد عبث ووسيلة للحصول على النقود من الأغبياء .. ألقيت نظرة أخيرة على إعلان المزاد ... لم يسبق لي أن حضرت مزاداً لبيع أحد البيوت ولكنني حضرت في هذه المرة لكي أرى

الشخص الذي سيشتري " القلاع " .. أو بمعنى آخر لأنها متعة أن أرى صاحب أرض الفجر ... أعتقد أن هذه كانت نقطة البداية ... خطر على ذهني خاطر غريب .. سوف أحضر وأدعي أنني جئت للاشتراك في المزاد .. أن أزايد على البنائين الذين حضروا ليشتروا البيت بثمن بخس ... سوف أخيب آمالهم وأشتري البيت وأذهب إلى " رودلف سانتونكس " قائلا له : تعال وابن لي بيتا .. لقد اشتريت لك الموقع إذ سوف أعثر على فتاة ... فتاة رائعة لنعيش معا في سعادة أبدية .. كانت تراودني في العادة مثل هذه الأحلام .

ومن الطبيعي أن تمضي تلك الأحلام دون أن تتحقق .. ولكنني كنت أجد فيها متعة .. متعة يا إلهي ! آه لو أنني كنت أعرف الغيب !

كانت مجرد مصادفة تلك التي أحضرتني إلى الأرض المجاورة لبيت " أرض الفجر " ... كنت أقود سيارة مستأجرة للذهاب ببعض الناس لحضور مزاد في "لندن" .. ليس لبيع بيت وإنما لبيع محتوياته .. كان منزلا كبيرا قبيحا يقع في أطراف المدينة .. كان الراكبان زوجين عجوز وهرم سمعتهما يتحدثان عن شراء مجموعة من الورق المعجن ... المرة الوحيدة التي سمعت فيها عن الورق المعجن من أمي التي كانت تقول إن غسل الأواني المصنوعة من ذلك الورق أفضل من غسل أواني البلاستيك ..

تعجبت لرغبة قوم أثرياء في شراء مجموعة من ذلك النوع.... اختزنت تلك الحقيقة في ذاكرتي حتى أقرأ شيئا عن الورق المعجن الذي يتكبد الأثرياء من أجله كل هذه المشقة ... كنت في الثانية والعشرين من عمري وأحب جمع المعلومات عن الأشياء ... كنت أعرف الشيء الكثير عن السيارات والميكانيكا والقيادة ... اشتغلت في "إيرلندا " ذات يوم في مجال الخيول وكدت أتورط مع إحدى عصابات المخدرات ولكنني كنت عاقلا ونجوت بنفسي في الوقت المناسب.. لم تكن وظيفة قائد سيارة لإحدى شركات تأجير السيارات الفاخرة بالشيء السيء ... كنت أحصل على كثير من المال ولكن العمل نفسه كان مملا... عملت ذات صيف في جمع الفواكه وكان الأجر قليلا ... ولكنني استمتعت بالعمل . جربت العديد من الأعمال ... عملت نادلا في فندق من

الدرجة الثالثة ؟ وحارسا للشاطئ في الصيف ... وعملت بائعا لدوائر المعارف والمكانس الكهربائية وغيرها ... واشتغلت ذات مرة في حديقة ، واكتسبت بعض المعلومات عن الأزهار . لم أمكث كثيرا في أي وظيفة .. ولماذا أفعل ؟ كنت أجد متعة في أي عمل أزاوله ... كانت بعض الأعمال تحتاج إلى جهد أكثر من غيرها ولكنني لم أكترث لذلك .. لم أكن في الواقع كسولا .. ولكنني كنت سريع الملل . أحب أن أذهب إلى أي مكان وأرى كل شيء ... وأن أفعل كل شيء .... أريد أن أكتشف شيئا جديدا .. نعم .. هذه طبيعتي .. أريد أن أكتشف شيئا .

كنت أثناء الدراسة أترك المدرسة بين الحين والحين لأبحث عن شيء ... ولكنني لم أكن أعرف في ذلك الوقت ما هذا الشيء . ولكن هذا الشيء موجود في مكان ما . .. وسوف أعرف عنه كل شيء إن عاجلا أو آجلا . ربما يكون فتاة ... أنا أحب الفتيات ... ولكنني لم أر أهمية لأي فتاة التقيت بها .. كنت أحب الواحدة ولكنني سرعان ما أبحث عن غيرها .. مثل الوظائف تماما .. وهكذا ظللت أنتقل من شيء إلى آخر منذ تركت الدراسة .

لم يوافق كثير من الناس على أسلوب حياتي .. ربما لأنهم لم يكونوا يعرفونني جيدا .. كانوا يريدون مني أن أعرف فتاة واحدة وأوفر المال لكي أتزوجها وأستقر في عمل جيد ... ولكنني كنت أرى العالم الذي وضع فيه الإنسان الأقمار الصناعية في السماء .. والتفكير في السفر إلى الكواكب .. لابد إذن من وجود شيء يخفق له قلبك ويستحق منك أن تبحث عنه ولو طفت الكرة الأرضية كلها . أذكر ذات يوم .. في الفترة التي كنت أعمل فيها نادلا .. إذ كنت أسير في شارع " بوند " ووقفت أمام فترينة محل لبيع الأحذية الغالية الثمن .. ورأيت في "الفترينة" المجاورة ثلاث لوحات .. لست من هواة الفنون ولم أذهب إلى المتحف في حياتي سوى مرة واحدة بدافع الفضول . كانت اللوحة الأولى لمنظر طبيعي ، والثانية لسيدة ولكن الأبعاد غير متناسبة طويلة وبدا شكل السيدة مشوها ويكاد يصعب تمييز أنها سيدة .. أما الثالثة فكانت عبارة عن مجموعة من الدوائر ... دائرة صغيرة في الوسط تحيط بها مجموعة من الدوائر الكبيرة ... وكل دائرة ملونة بلون صارخ يتنافر بشكل

غريب مع اللون المجاور .. وهنا وهناك بقع لونية لا يبدو أنها تعني شيئا .. ورغم هذا فقد خيل إلي أنها تقول شيئا ... إنني لا أجيد الوصف ؟ ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني كنت أشعر برغبة شديدة في تأمل اللوحة، وقفت طويلا أتأمل الصورة وأنا أفكر .. فلنفترض أنني اشتريت هذه اللوحة .. كم يبلغ ثمنها .. عشرون ؟ خمسة وعشرون جنيها ؟ دخلت المحل بثبات ورحب بي صاحب المحل وأخبرته برغبتي في مشاهدة اللوحة عن قرب ، وأحضر الرجل اللوحة وأمسكها لي لأتأملها كما أشاء ، وسألته أخيرا :

كم ثمن هذه اللوحة ...

– خمسة وعشرون ألف جنيه !

هززت رأسي وأنا أقول له : إنه مبلغ ضخم ... ولكنني أعتقد أن اللوحة تستحق هذا الثمن !

– نعم ... أنت صاحب ذوق رفيع ...

خيل إلي أن كل واحد منا فهم الآخر جيدا ... شكرته وخرجت إلى الشارع .. لا أعرف الشيء الكثير عن الكتابة .. أعني الكتابة بالأسلوب السليم .. اللوحة التي رأيتها على سبيل المثال .. في الواقع ليس لها صلة بأي شيء .. أعني أنها لا تثير أي أفكار ، ورغم ذلك فأني أراها مهمة على وجه ما .. إنها كواحدة من الأمور التي وقعت لي وتعني شيئا .. تماما مثل أرض الغجر التي كانت تعني شيئا بالنسبة لي ... كما أن " سانتونكس " يعني شيئا بالنسبة لي ...

لم أذكر عنه الشيء الكثير .. هو مهندس ولا شك أنك قد خمنت ذلك .. لم تكن لي صلة بالمهندسين رغم أنني أعرف بعض الأشياء عن البناء .. التقيت بـ"سانتونكس" أثناء واحدة من رحلاتي .. كنت أعمل سائقا أذهب بالأغنياء إلى حيث يرغبون .. ذهبت مرة أو مرتين إلى ألمانيا .. وأنا أعرف بعض الألمانية .. كذلك ذهبت إلى فرنسا وأستطيع أن أتحدث قليلا بالفرنسية ... كما ذهبت مرة إلى البرتغال .. كان زبائني من المسنين الذي يملكون الكثير من المال والقليل من الصحة .. عندما تصحب قوما كهؤلاء تدرك أن المال ليس كل شيء .. كان معظم من رأيتهم من الأغنياء تعساء للغاية ... كانت لهم همومهم .. الضرائب

والاستثمارات يكاد القلق يقتلهم ... كذلك حياتهم الجنسية ليست دافئة . فإما ترى الواحد منهم متزوجا من شابة حسناء شقراء تلهو في مكان ما مع عشاقها أو تكون الزوجة من ذلك الطراز الذي لا يكف عن الشكوى وتحيل حياة الزوج إلى جحيم .. كلا ..... أنا لا أحسدهم وأفضل أن أكون أنا .. " مايكل روجرز " .. الذي يحب أن يرى الدنيا ويصاحب الفتيات الحسان كلما أراد ذلك .. كانت مواردي تكفيني بالكاد ... ولكنني كنت أرى الحياة لهوا ومتعة وكنت قانعا بذلك .. ولكنني كنت أعرف أن الشباب عندما يتجاوز مرحلة اللهو لا تصبح الحياة عنده مجرد لهو واستمتاع .. وراء ذلك كله كان هناك دائما شيء آخر .. الاشتياق إلى شخص ما .. وشيء ما .. على أي حال ... تكملة لما كنت أقوله ..

كان هناك رجل شيخ اعتدت أن أذهب به إلى " الريفييرا " ليشرف على بيت كان يبنيه هنالك .. وكان " سانتونكس " هو المهندس .. ظننت "سانتونكس" إنجليزيا في البداية ولكن اتضح أنه اسكنديناڤي ... كان شابا معتل الصحة نحيلا للغاية غريب الوجه .. كان وجهه معوجا بشكل ما .. لم يكن نصفا الوجه متماثلين .. كان سيئ الخلق مع زبائنه .. كان يتقاضى مبالغ ضخمة وكان واثقا من نفسه ..

سمعت الفتى الشيخ ذات مرة يصرخ في وجه " سانتونكس " قائلا إنه يصرف أكثر من المتفق عليه ؟ وقال له المهندس محتدا :

– هذا صحيح .. ولكن المال ينبغي أن يصرف .. وقال الشيخ :

يجب أن تتصرف في حدود الاتفاق ..

وقال " سانتونكس " : في هذه الحالة لن تحصل على البيت الذي تريده.. سوف يكون البيت الذي أبنيه هو الذي تريده .. لا تتصرف ببخل مثل رجال الطبقة الوسطى .. عندما أنتهي من بيتك سوف يكون مفخرة لك وسوف يحسدك عليه أصدقاؤك .. قلت لك من قبل إنني لا أبني بيتا لأي إنسان .. ولن يكون بيتك مثل بيوت الآخرين سوف يكون فظيعا .. فظيعا ...

– أوه .. كلا .. المشكلة أنك لا تعرف ما تريده .. أو بمعنى آخر أنت لا تعرف بوضوح ما تريده .. ولكنني أعرف .. أنت تريد الكيف وسوف أعطيك الكيف ..

كان معتادا على أن يقول أشياء كهذه .. وأظل واقفا أستمع .. وكان يداخلني إحساس بأن هذا البيت الذي يبنيه بين أشجار الصنوبر مطل على البحر ، سوف يكون بيتا غير عادي .. لم يكن نصف البيت يطل على البحر وفقا للأسلوب التقليدي وإنما كان يطل بزاوية على الجبال ...

أو على وجه أصح على زرقة السماء التي تبدو بين التلال ... كان شيئا غريبا وغير عادي ...

كان " سانتونكس " يقول لي أحيانا : إنني لا أبني البيوت إلا للناس الذين أحب أن أبني لهم ... وسألته عما إذا كان يقصد الأغنياء ، فقال : إنهم لابد أن يكونوا أغنياء ولكن المال ليس هو هدفه الوحيد ، وإنما ينبغي أن يكونوا أغنياء ليتحملوا النفقات الباهظة التي تتطلبها البيوت التي يبنيها .. فهو يتسلم الموقع وذلك لا يعني شيئا .. ولكن البيت بعد ذلك يصبح جوهرة فريدة .. ضحك وسألني هل تفهم ما أقوله ؟

قلت له ببطء : أعتقد ذلك .. ومع هذا .. أعتقد أنني أفهمك إلى حد ما .. ذهبنا مرة أخرى لزيارة البيت الذي كاد يكتمل ولن أستطيع وصفه .. ولكنه كان شيئا خاصا متميزا .. بيتا يفخر به صاحبه ويحب أن يريه للناس .. وقال لي " سانتونكس " ذات يوم فجأة :

– أنت تعلم أنني أستطيع أن أبني بيتا لك .. إنني أعرف نوع البيت الذي تريده ..

وقلت له بأمانة : أنا شخصيا لا أعرفه ...

– ربما لم تكن تعرفه .. ولكنني سوف أعرفه نيابة عنك ...

سكت برهة ثم قال : ما يؤسف له حقا أنك لا تملك أي مال ..

وقلت : ولن أملك مالا قط ..

– لا تستطيع أن تجزم بذلك .. ليس معنى أنك ولدت فقيرا أنك ستبقى فقيرا على الدوام .. للمال نزوات .. إنه يذهب لمن يسعى إليه ...

– لست أملك القدرة الكافية .

– ليس لديك الطموح الكافي .. لم يستيقظ الطموح في أعماقك بعد .. ولكنه

موجود .

قلت له بمرارة : عندما يستيقظ طموحي وأحصل على المال فسوف آتي إليك لتبني لي بيتا ..

تنهد " سانتونكس " وقال :

– لا أستطيع الانتظار ... كلا .. لا أستطيع الانتظار .. لن أعيش طويلا .. ربما عشت الفترة التي تسمح لي ببناء بيت أو بيتين على الأكثر ...

– سوف أستحث طموحي لكي يستيقظ بسرعة .

– كلا .. أنت تتمتع بصحة جيدة .. وتستمتع بحياتك .. لا تغير أسلوبك في الحياة .

وقلت : لا أستطيع ولو حاولت ...

فكرت وقتها في أن ذلك صحيح .. فقد كنت أحب طريقة حياتي وما أحصل عليه من متعة ... كانت صحتي جيدة .. وكنت أقود السيارة للأغنياء الذين يملكون المال الكثير الذي اكتسبوه من وراء العمل الشاق .. ولكن العمل الشاق تسبب لهم كذلك في أمراض القلب وغيرها من الأمراض .. لم أكن أرغب في إرهاق نفسي بالعمل .. لم يكن لدي طموح أو هذا ما خيل إلي ... ولكنني أعتقد أن " سانتونكس " كان طموحا .. لم يكن رجلا قويا وكنت أرى طموحه يدفعه إلى قتل نفسه .. باختصار لم أكن أحب أن أعمل .. كنت أشك في العمل وأكرهه وأفكر أنه من الأمور السيئة التي اخترعها الإنسان لنفسه .. كثيرا ما كنت أفكر في " سانتونكس " .. كنت أفكر فيه أكثر من أي إنسان آخر .. من أغرب الأمور في الحياة أن بعض الأشياء تظل عالقة بالذاكرة .. أعتقد أن الإنسان يختار الأشياء التي يتذكرها .. كان " سانتونكس " والبيت واللوحة التي رأيتها في شارع " بوند " وزيارة البيت المتهدم .. القلاع.. وقصة أرض الغجر .. كانت كل هذه الأشياء هي التي اخترت أن أتذكرها ...

كان إحساس غريب لا يزال يراودني بأنني أنتظر شيئاً ... وأنني في انتظار شيء يقدم لي أو يحدث لي ، لا أعرف كيف أصف هذا الإحساس . أعتقد أنني كنت أبحث عن فتاة ... الفتاة المناسبة .. لا أعني بذلك الفتاة المناسبة

لحياة الاستقرار كما كانت تقصد أمي وعمي وأصدقائي ، لأنني لم أكن أعرف الحب في ذلك الوقت .. كان الجنس هو كل ما أعرفه .. شأن كل شباب اليوم .. لم أكن أعرف لا أنا ولا أي واحد من أصدقائي شكل الحب عندما يأتي ولكن الحب على ما أعتقد يطرق الباب بطريقة مفاجئة إن عاجلا أو آجلا .. لا أعتقد أنك تقول لنفسك : " ربما تكون هذه الفتاة لي . أو .. هذه هي الفتاة التي سوف تكون لي .. أو على الأقل .. لم يكن شعوري على هذا النحو .. لم أكن أعرف أن ذلك عندما يحدث فسوف يحدث فجأة .. وأنني سوف أقول :

هذه هي الفتاة التي أنتمي إليها .. إنني لها .. إنني أنتمي إليها بكل كياني وللأبد ... كلا لم أحلم بشيء كهذا قط .. ألم يقل واحد من رجال الكوميديا مرة: " وقعت في الحب مرة .. ولو شعرت بالحب يدنو مني مرة ثانية فسوف أهاجر ".

هكذا كان الحال معي .. لو أنني عرفت .. لو أنني عرفت ما سينتج عن ذلك الحب لهاجرت أنا أيضا .. هذا لو أنني كنت عاقلا ! .

الفصل الثاني

لم أنس خطتي في الذهاب إلى المزاد .... كانت أمامي مهلة ثلاثة أسابيع وكان علي أن أذهب في رحلتين إلى القارة .. واحدة إلى فرنسا والأخرى إلى ألمانيا .. حدثت الأزمة وأنا في ألمانيا .. كنت أصحب زوجين هرماوعجوزا .. كانا سخيفين غير مهذبين وأحسست بأنني لا أستطيع الاستمرار في حياة التملق أكثر من ذلك .. ولم أستطع أن أخبرهما بأنني لا أطيق الاستمرار معهما يوما آخر .. لهذا اتصلت بالفندق الذي ينزلان فيه لأخطرهما أنني مريض وأرسلت برقية إلى الشركة التي أعمل معها قائلا إنني أعاني حمى شديدة وقد أذهب إلى المستشفى ، وطلبت إرسال سائق آخر ليحل محلي .. وفكرت في تبرير موقفي عند رجوعي إلى لندن ولكنني رأيت أنه لا داعي لذلك لأنني سئمت مهنة القيادة ...

كانت ثورتي تلك بمثابة نقطة تحول مهمة في تاريخ حياتي .. لأنني تمكنت من الذهاب إلى المزاد في يوم انعقاده ... لم يسبق لي في حياتي حضور مزاد بيع لأحد العقارات .. ومن ثم كنت أراها تجربة مثيرة ..

لم يتجاوز عدد الحاضرين بضعة أشخاص .. كان أغلبهم من القرويين .. قيل لي : إن أحدهم من البنائين الذين يرغبون في شراء البيت بثمن بخس ...

واثنين من المحامين .... ورجلا غريبا يرتدي ملابس أنيقة يبدو أنه جاء من لندن ... بدأ المزاد وتحدث الخبير المثمن عن مزايا البيت والأرض المحيطة به .. عرض أحدهم خمسة آلاف جنيه ، وابتسم الخبير المثمن ابتسامة شاحبة وانتهى المزاد بسرعة عندما أعلن الخبير قفل المزاد لأن العروض المقدمة لم تصل إلى الثمن الأساسي ....

دار حوار بيني وبين القروي الذي كان يقف بجواري .. قال إن البيت سوف يباع بأبخس بخس .. سألته : هل يرجع ذلك لسمعته السيئة ؟ وسألني بدوره عما إذا كنت قد سمعت ما يروى عن أرض الغجر وأضاف .. إن على المشتري أن يهدم البيت وينفق مصروفات طائلة لبناء بيت حديث ، فضلا عن أنه سيواجه

مشكلة تعذر الحصول على خدم يعملون في ذلك المكان الريفي ...

افترقنا ... ومشيت تاركا المكان ... قادتني قدماي إلى الطريق التي تقع بين الأشجار والمنحنى الصاعد إلى الأرض السبخة .... هكذا وصلت إلى البقعة التي رأيت فيها "إيللي" لأول مرة ... كانت تقف ملتصقة بإحدى أشجار الشربين الكبيرة ... كانت نظراتها تدل على أنها شاردة اللب .. وأنها واقفة في ذلك المكان منذ بعض الوقت ... كانت ترتدي ثوبا أخضر اللون ... وكان شعرها البني الناعم الرقيق يشبه في لونه أوراق الخريف .. كان يبدو عليها لون من الضعف . توقفت عندما رأيتها ... كانت تحدق في وجهي وقد انفرجت شفتاها وظهر عليها الارتياع . ارتعت أنا الآخر للمفاجأة . وأردت أن أقول شيئا ولكنني لم أجد الكلمات المناسبة ... ثم قلت أخيرا :

– أسف .. أ .. لم أقصد أن أفزعك ... لم أكن أعلم بوجود شخص في هذا المكان .. قالت بصوت رقيق أشبه بصوت فتاة صغيرة ...

– لا بأس ... أنا بدوري لم أكن أتصور قدوم أحد إلى هذا المكان ... رأيتها ترتجف قليلا . وخيل إلي أن ذلك بسبب برودة المكان ، اقتربت خطوة منها ، وقلت لها ، إن المكان منعزل ، وكذلك البيت الذي تحول إلى أنقاض وقالت :

– تعني " القلاع " ؟ أليس هذا اسم البيت ؟ ولكن لا يبدو أنه كانت توجد فيه أي قلاع ... ربما كان ذلك مجرد اسم .. يطلق الناس مثل هذه الأسماء لكي تبدو الأشياء أكبر من حجمها الحقيقي ...

ضحكت "إيللي" ضحكة خفيفة وقالت :

– أعتقد أن الأمر كان كذلك بالنسبة للبيت ... أ ... لست متأكدة .. هل هذا هو البيت الذي كان معروضا للبيع بالمزاد ؟

– نعم .. أنا قادم على التو من المزاد ....

سألت الفتاة بقلق : أوه .. هل أ .... كنت مهتما بالمزاد ؟

– ليس من المحتمل أن أشتري بيتا متهدما تحيط به بضع مئات من الفدادين من الأرض السبخة .. لست واحدا من أفراد الطبقة القادرة ...

– هل تم بيع البيت ؟

– كلا .. لم تصل العروض المقدمة إلى الثمن الأساسي ... تنهدت الفتاة بارتياح وقالت : أوه ... هكذا ...

سألتها : هل كنت راغبة في شراء البيت ؟

قالت : كلا ... كلا بالتأكيد ... قالت ذلك في شيء من العصبية ... وترددت قليلا قبل أن أقول : – لا أستطيع شراء مثل هذا البيت لأنني لا أملك أي مال .. ولكنني مهتم به وأحب أن أشتريه .. لك أن تسخري مني إذا شئت ولكن هذه هي الحقيقة .

– ولكن أليس البيت متهدما بشكل خطير ؟

– أوه ... نعم ... إنني أحبه على ما هو عليه الآن ... وأرغب في هدمه لأن شكله الحالي قبيح وأعتقد أنه كان بيتا للأحزان ... ولكن المكان نفسه ليس قبيحا أو حزينا .. إنه جميل ... انظري من هنا ... من خلال الأشجار .. تطلعي إلى المنظر حتى التلال والأرض الفضاء .. ثم تعالي وانظري من هذه الزاوية ... جذبتها من ذراعها وقدتها نحو الجهة الأخرى من البوصلة .. وقلت لها :

– تستطيعين من هذه الزاوية أن تري الصخور والبحر ... توجد بيننا وبين البحر مدينة ولكننا لا نستطيع أن نراها بسبب الصخور البارزة ... كذلك تستطيعين من زاوية ثالثة أن تشاهدي الوادي بما فيه من غابات .. هكذا ترين عند قطع تلك الأشجار فسوف يوجد مكان فسيح حول البيت ... هل ترين كم يكون المنزل رائعا لو أقيم في هذا المكان ؟ لن يكون في نفس موقعه الحالي وإنما على بعد خمسين أو مائة متر إلى اليمين ... هذه هي البقعة التي تناسب البيت الجديد ... البيت الذي يستطيع مهندس عبقري أن يشيده ..

قالت بارتياب : هل تعرف واحدا من هؤلاء المهندسين العباقرة ؟

قلت لها : نعم .. ثم بدأت أتحدث عن " سانتونكس " . جلسنا متجاورين على جذع شجرة ميتة ... وأخذت أحدثها ... نعم ... أخذت أتحدث مع تلك الفتاة الجميلة التي لم أرها من قبل ... حدثتها عن حلمي ؟ وقلت :

– ولكنه لن يتحقق ... أعرف ذلك .. فكري فيه كما أفكر فيه .. هناك نستطيع

أن نقطع الأشجار ونزرع الأزهار مكانها .. وقد يأتي صديقي "سانتونكس" .. أعتقد أنه سوف يسعل سعالا شديدا لأنني أعتقد أنه مصاب بداء الرئة وأنه لن يعيش طويلا .. ولكنه يستطيع أن يبني البيت قبل موته .. يستطيع أن يبني منزلا رائعا .. ليست لديك فكرة عن البيوت التي يشيدها .. إنه يبنيها للأثرياء الذي يتطلعون إلى شيء فريد من نوعه .. شيء يراه الإنسان في الأحلام ... شيء رائع ...

– أريد بيتا كهذا ... إنك تصوره لي بحيث أكاد أحس بوجوده .. نعم ... كم يكون هذا المكان رائعا للإقامة .... يمكن أن يتحول فيه الحلم إلى حقيقة ... يستطيع الإنسان أن يعيش هنا ويرى نفسه حرا .. غير مرتبط بالقيود التي يفرضها الناس لكي يفعل ما لا يريد ؟ ويمتنع عن عمل كل ما يحب .. أوه لقد سئمت حياتي والناس الذين يحيطون بي. سئمت كل شيء ... هكذا بدأت قصتنا .. أنا و "إيللي" معا .. أنا بأحلامي وهي بثورتها وتمردها على الحياة التي تعيشها .. توقفنا عن الحديث وكل منا ينظر إلى الآخر ...

ثم سألتني :

– ما اسمك ؟

– " مايك روجرز " ... " مايكل روجرز " ... وأنت ؟

–" فينيلا " ... ترددت برهة ثم أردفت تقول : – " فينيلا جودمان " ...

كان كل منا يشعر بالرغبة في اللقاء مرة أخرى ولكننا لم نعرف كيف نرتب ذلك .. ربما لأن لكل واحد منا أسراره التي لا يريد أن يكشفها للطرف الآخر في الوقت الحاضر .. وقف ذلك بمثابة حاجز بيننا .. لم يكن أحدنا يستطيع أن يسأل الآخر بصراحة متى نلتقي أو أين يعيش .. لم نعرف كذلك في ذلك اليوم كيف نفترق .. كان الأمر محرجا .. اشتدت برودة الجو ... سألتها في تردد : هل تقيمين قريبا من هذا المكان ؟

قالت إنها تنزل في ماركت " شادويل " ... وهي قرية قريبة من المكان . أعرف أن فيها فندقا من فئة النجوم الثلاثة ، وسألتني كذلك في تردد عما إذا كنت أقيم هنا ، وأجبتها بالنفي وأنني جئت في زيارة لمدة يوم واحد ...

خيم الصمت بيننا مرة أخرى .. أحسست بها ترتجف وعرضت عليها أن نمشي لنحتفظ بدفء أجسامنا ؟ وسألتها عما إذا كان لديها سيارة أم أنها ستعود بالحافلة أم بالقطار .

وأخبرتني أنها تركت سيارتها في القرية وخمنت أنها ترغب في التخلص مني ولكنها لا تعرف كيف ، وقلت لها :

– سوف نمشي حتى مشارف القرية ...

نظرت إلي نظرة امتنان ... وسرنا ببطء في الشارع المتعرج الذي وقع فيه الكثير من حوادث السيارات ... وعندما وصلنا إلى منعطف برزت لنا فجأة من وراء الأشجار سيدة طويلة نحيفة .. كان ظهورها مفاجئا لدرجة أن "إيللي" فزعت وأطلقت صرخة خفيفة ..... كانت السيدة العجوز التي رأيتها قبل ذلك وراء سور حديقتها .. المسز "ليي" ... كانت العجوز تبدو في هذه المرة أكثر وحشية والريح تدفع شعرها الأسود بينما تغطي كتفيها بعباءة قرمزية اللون وقالت العجوز :

– ما الذي تفعلونه أيها الأعزاء هنا ؟ وما الذي أتى بكم إلى أرض الغجر ؟

قالت "إيللي" بارتباك : أوه .. نرجو ألا نكون معتدين على أملاك الغير ...

– كانت هذه أرض الغجر ولقد طردونا منها ... لن تجنوا خيرا من التجوال في أرض الغجر !

قالت "إيللي " بأدب :

– أنا شديدة الأسف إذ لم يكن من حقنا المجيء ، ظننت أن هذا المكان معروض للبيع اليوم .

– وسوف يلازم سوء الحظ أي إنسان يفكر في شرائه .. استمعي إلي أيتها الحسناء ... لأنك حسناء حقا . سوف يكون سوء الحظ حليف من يشتريه .. لقد انصبت على هذه الأرض لعنة منذ زمن بعيد .. ابعدوا عن أرض الغجر .. لن تأتي هذه الأرض بغير الموت والخطر .. ابعدوا عنا ولا تعودوا إليها قط .. لا تقولوا بعد ذلك إنني لم أحذركم ....

قالت "إيللي" في شيء من العناد :

– ولكننا لا نسبب أذى لأحد ...

قلت للعجوز : كفى ... لاتفزعي الشابة الصغيرة ...

التفت نحو "إيللي" مفسرا لها الموقف قائلا :

تعيش المسز " لي " في القرية ... تقيم في كوخ هناك . وهي تقرأ البخت وتتنبأ بالمستقبل .. أليس كذلك يا مسز "لي " ؟

قالت المسز "لي " إن لديها الموهبة ، وعرضت على " إيللي " أن تقرأ لها كفها إذا أعطتها عملة فضية ، وقالت "إيللي " إنها لا ترغب في معرفة مستقبلها ، وقالت العجوز :

– ربما كان من مصلحتك أن تعرفي ما يجب أن تتجنبيه .. وما سيحدث لك .. هيا .. لديك في جيبك قدر كبير من النقود .. إنني أعرف الأشياء التي يجب أن تعلميها .. وضعت "إيللي" في يد العجوز قطعتين من العملة وقالت : آه يا حسنائي .. والآن ستعرفين ما تقوله الأم العجوز "لي " ....

خلعت "إيللي" قفازها ومدت يدها للعجوز التي فحصت اليد باهتمام وهي تتمتم لنفسها بكلمات غير واضحة ثم تركت اليد فجأة وهي تقول :

– لو كنت مكانك لابتعدت .. اتركي هذا المكان ولا تعودي إليه ! هذا ما قلته لك منذ قليل وهو صحيح ... قرأته في كفك مرة أخرى .. انسي أرض الغجر .. انسي كل ما رأيته .. إنه ليس البيت وحده الذي حلت عليه اللعنة وإنما الأرض كذلك ...

قلت للعجوز بخشونة : أنت مصرة بجنون على هذا الرأي ... ولكن الشابة الصغيرة ليس لها شأن بالأرض هنا .. لقد جاءت لمجرد النزهة اليوم ..

لم تلق السيدة العجوز بالا لما أقوله وقالت بصرامة :

– لقد حذرتك يا حسنائي ....

تستطيعين أن تعيشي حياة سعيدة ولكن ينبغي أن تبتعدي عن الخطر .. لاتقربي مكانا تحف به المخاطر أو حلت عليه اللعنة .. اذهبي إلى حيث يشملك الحب وتحيط بك الرعاية ... وإلا ...

سكتت العجوز برهة ثم قالت بصوت هادئ :

– لا أحب أن أرى ما أراه مكتوبا في كفك ...

دفعت فجأة بقطعتي النقود في يد "إيللي" وهي تتمتم بكلمات غير مسموعة خيل إلي أنها : "إنه قاس .. قاس ذلك الذي سوف يحدث ! قالت ذلك وابتعدت بخطا مسرعة ... وقالت "إيللي" بانزعاج :

– يالها من سيدة مخيفة ...

قلت لها مهدئا روعها لا تكترثي بها .. أعتقد أنها ليست عاقلة تماما .. كل ما في الأمر أنها تريد أن تفزعك ... وأعتقد أن لدى الناس هنا شعورا خاصا بالنسبة للبيت والأرض .

– هل وقعت حوادث هنا ؟

– نعم .. ألم تري الطرق المعوجة الضيقة ؟ يجب على المجلس القروي أن يفعل شيئا .. لا شك أن المزيد من الحوادث سيقع لعدم وجود لافتات تحذير كافية ...

– تعني حوادث السيارات أم أشياء أخرى ؟

– يحب الناس كثرة الحديث عن الكوارث .. هكذا تتجمع القصص عن الأماكن.

– هل هذا واحد من الأسباب التي تجعلهم يقولون إن المكان سيباع بثمن بخس ؟

– أعتقد ذلك .. محليا على الأقل وإن كنت أعتقد أن المشتري سوف يكون من الخارج ... أراك ترتعدين ... هيا بنا نمش بسرعة ... هل تفضلين أن أتركك قبل عودتك إلى القرية ؟

– كلا ... بالتأكيد لا ... ولماذا ؟ قلت لها بارتباك :

– استمعي إلي .. سوف أكون غدا في ماركت " شادويل " .. أ ... أعتقد .. لا أدري ما إذا كنت باقية هناك .. أعني ... هل توجد فرصة لكي أراك ؟

أدرت وجهي الذي علته حمرة الخجل بعيدا وقلت :

– أوه ... نعم .. لن أعود إلى لندن قبل المساء ....

– إذن ... ربما ... أ ... أعتقد أنه ربما لم يكن ...

– حسن .. تستطيع أن تأتي إلى مقهى الـ " بلودوج " لكي نشرب الشاي معا

... إنه مكان لطيف ...

ضحكت "إيللي" ضحكة بدت غريبة لي ثم قالت :

- نعم .. سوف تأتي .. حوالي الرابعة والنصف مساء ... هل يناسبك هذا الموعد ؟

- سوف أكون هناك في انتظارك .. أ ... أنا سعيد للغاية ...

لم أخبرها عن ذلك الشيء الذي يسعدني ... وصلنا إلى آخر منعطف في الطريق حيث ظهرت المساكن ، وقلت لها :

- إلى الملتقى في الغد .. ولا تفكري ثانية فيما قالته العجوز المخرفة .. وهي ليست الوحيدة في المكان ...

- هل تعتقد أن المكان مخيف حقا ؟

- أرض الغجر ؟ كلا ...

حسن ... تلك كانت الظروف التي التقيت فيها بـ "إيللي" ....

ذهبت في اليوم التالي إلى مقهى الـ " بلودوج " في انتظار "إيللي" .. شربنا الشاي معا وتبادلنا الحديث .. وفي هذه الجلسة أيضا لم نتحدث كثيرا عن أنفسنا .. دار معظم الحديث حول الأشياء التي نفكر فيها والمشاعر التي نحس بها . ثم تطلعت "إيللي" إلى ساعتها وقالت إن الوقت قد حان لانصرافها كي تلحق بقطار الساعة الخامسة والنصف المتجه إلى لندن ... وقلت لها :

- كنت أعتقد أن لديك سيارة تنتظرك هنا .. نظرت إلي بارتباك وقالت إن سيارة الأمس لم تكن ملكها ولم تقل سيارة من ... خيم الصمت وسادنا الارتباك وناديت الساقي ودفعت الحساب ثم قلت لـ " إيللي " بجسارة :

- هل سأراك مرة أخرى ؟

نكست رأسها وقالت إنها ستبقى في لندن لمدة أسبوعين ، وسألتها : أين؟ كيف ؟ تواعدنا على اللقاء في " ريجنت بارك " بعد ثلاثة أيام .. كان الجو رائعا ...

وتناولنا بعض الطعام في مطعم في الهواء الطلق ، ثم أخذنا نتمشى في حديقة الملكة " ماري " وجلسنا بعد ذلك نتحدث عن أنفسنا .. أخبرتها أنني

تلقيت قسطا من التعليم ولكنني لم أواصل تعليمي .. ثم حدثتها عن بعض الوظائف التي شغلتها وكيف أنني لم أعمر في وظيفة واحدة بسبب طبيعتي القلقة ومحاولتي أن أجرب حظي في أكثر من عمل .. ومن المضحك حقا أنها كانت تستمع إلي بولع شديد .. وقالت : مختلف تماما .. مختلف بشكل رائع .. وسألتها عما تقصده بكلمة " مختلف " وقالت :

- مختلف عني ... وقلت محاولا إغاظتها : ألست فتاة غنية ؟ فتاة غنية صغيرة بائسة !

قالت : نعم ... أنا فتاة غنية صغيرة بائسة ...

ثم حدثتني عن ثرواتها والرفاهية التي تعيش فيها .. والملل الذي تعانيه حيث لا يحق لها أن تختار أصدقاءها .. وكيف تتطلع في بعض الأحيان إلى أشخاص يستمتعون بحياتهم في حين أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك .. ماتت أمها وهي طفلة صغيرة وتزوج أبوها مرة ثانية .. وبعد سنوات قليلة مات الأب .. فهمت من لهجة حديثها أنها لا تكترث كثيرا بزوجة أبيها ... وأن تلك الزوجة كانت تعيش أغلب الوقت في أمريكا ولكنها تسافر كثيرا إلى الخارج .. بدا غريبا لي أن أستمع إلى فتاة في مثل سنها تتحدث عن هذا الجو من القيود التي تفرض على حريتها .. صحيح أنها كانت تذهب إلى الحفلات والملاهي . ولكنها لم تكن تتمتع بأي حرية أو حق في الاستمتاع بالحياة ... وسألتها :

- أليس لك أي أصدقاء إذن .. وماذا بشأن المحبين ؟

قالت "إيللي" بمرارة :

- كل شيء يتم اختياره لي .. والأصدقاء في غاية السخف ..

- كأنك موجودة في سجن .

- هذه هي الحقيقة ...

- أليس لك أي أصدقاء من اختيارك ؟

- لدي الآن .. لدي "جريتا" ...

سألتها عمن تكون "جريتا" فقالت :

- عاملتني أول الأمر كوصيفة .. لا .. ليس كذلك تماما .. على أي حال كانت

لدي فتاة فرنسية عاشت معنا لمدة عام .. لتعلمني الفرنسية .. ثم جاءت "جريتا" من ألمانيا لتعلمني الألمانية .. ولكن "جريتا" كانت مختلفة .. اختلف كل شيء بعد وصول " جريتا " ....

سألتها : هل أنت شديدة الحب لها ؟

– هي تساعدني .. إنها تقف في صفي ... ترتب لي كل شيء بحيث أستطيع أن أفعل ما أريده وأذهب إلى شتى الأماكن .... إنها تكذب لتغطيني.. لم يكن باستطاعتي أن أذهب إلى أرض الفجر لولا مساعدة "جريتا" .. إنها تصاحبني وترعاني في لندن عندما تكون زوجة أبي في باريس... أكتب خطابين أو ثلاثة وإذا سافرت إلى أي مكان ترسل "جريتا" الخطابات كل ثلاثة أو أربعة أيام وعليها طابع بريد لندن ....

– لماذا كنت ترغبين على أي حال في الذهاب إلى أرض الفجر ؟

لم تجبني في الحال ... وقالت بعد تردد :

– رتبت الأمر مع "جريتا" .. إنها رائعة ... تفكر في الأمور وتقترح الآراء...

– سألتها : ما شكل "جريتا" هذه ؟

– أوه .. إنها جميلة ... طويلة شقراء ... وتستطيع أن تفعل أي شيء ...

قلت لها : لا أظن أنني سوف أميل إليها ...

ضحكت "إيللي" وقالت : أوه ... أنا واثقة أنك سوف تحبها ... إنها شديدة الذكاء أيضا .

– لا أحب الفتيات الذكيات ... كما لا أحب الفتيات الطويلات الشقراوات .. أحب الفتيات الصغيرات ذوات الشعر الشبيه بأوراق الخريف ....

– أعتقد أنك تغار من "جريتا" .

– ربما ... هل أنت شديدة الحب لها ؟

– نعم ... أحبها حبا شديدا .. لقد جعلتني أرى الحياة مختلفة تماما ..

– هل كانت هي التي اقترحت عليك المجيء إلى هنا ؟ لماذا ؟

لا يوجد الشيء الكثير الذي تستطيعين مشاهدته أو عمله في هذا الجزء من العالم ...

قالت "إيللي" في ارتباك : هذا هو سرنا ...

– سرك أنت و "جريتا" ؟

هزت رأسها وهي تقول : يجب أن يكون لي بعض الأسرار الخاصة . هل تعرف "جريتا" أنك سوف تلتقين بي ؟

– هي تعرف إنني سأقابل واحدا .. إنها لا تكثر من الأسئلة .... وهي تعرف أنني سعيدة .

مر اسبوع بعد ذلك لم أر خلاله "إيللي" .. عادت زوجة أبيها من باريس، كذلك شخص كانت تسميه بـ " العم فرانك " . وفهمت منها عرضا أنها تحتفل بعيد ميلادها ، وأنهم سيقيمون لها حفلا كبيرا في لندن .. قالت إنها لن تستطيع الخروج في الأسبوع التالي . ولكن الأمر سوف يختلف بعد ذلك ....

سألتها : كيف ؟ فقالت : لأنني حينئذ سوف أكون قادرة على أن أفعل ما يروقني ..

بمساعدة "جريتا" كالعادة ؟

كانت طريقة كلامي عن "جريتا" تثير ضحك "إيللي" ، وكانت تقول لي أحيانا:

– أنت غبي لغيرتك منها ... يجب أن تلتقي بها يوما .. وسوف تحبها ....

وقلت لها بعناد : لا أحب الفتيات ذوات الميل إلى السيطرة ...

– لماذا تعتقد أنها ميالة للسيطرة ؟

– من طريقة حديثك عنها .. إنها مشغولة على الدوام بتدبير شيء ...

– "جريتا" على درجة عالية من الكفاءة .. إنها تجيد تدبير الأمور .. لهذا اعتمد عليها زوجة أبي إلى حد بعيد ...

سألتها عن عمها "فرانك" وقالت :

– في الواقع أنا لا أعرفه جيدا .. إنه زوج عمتي ... لم يكن سلوكه طيبا و[illegible] المتاعب مرة أو مرتين .

– هل كان شريرا ؟ غير مقبول اجتماعيا ؟

– أعتقد أنه تعرض لبعض السقطات المالية واعتاد الناس والمحامون أن يتجاوزوا عن عثرته .. بدفع بعض المال ...

- هكذا .. إذن فهو الجانب المظلم في الأسرة .. ومع هذا أعتقد أنني أستطيع التعامل معه بشكل أسهل من تعاملي مع "جريتا" .. لم تقترح علي "إيللي" قط أن ألتقي بأي واحد من أفراد أسرتها .. وكنت أسأل نفسي في بعض الأحيان عما إذا كان ينبغي لي أن أفاتحها في ذلك .. تجرأت مرة وقلت لها :

- استمعي إلي يا "إيللي" ... هل ترين أنه ينبغي لي أن ألتقي بأفراد أسرتك؟

أجابت على الفور قائلة : كلا .. لا أحب أن تلتقي بهم .

- أعرف أنني لست .

- لم أقصد هذا المعنى ..... لم أقصده بالمرة ! أعني أنهم سوف يثيرون عاصفة ... وأنا لا أتحمل مواجهة العواصف ....

- أشعر أحيانا أن هذا الأمر يجري في الظلام .. ألا تعتقدين أن ذلك يلقي علي ظلالا قاتمة ؟

قالت "إيللي" بحزم :

- لقد كبرت إلى الحد الذي يسمح لي باختيار أصدقائي ... لقد اقتربت من بلوغ سن الرشد ... عندما أبلغ الواحدة والعشرين من عمري لن يمنعني أحد من عمل ما أحب .. أما الآن فكما أقول لك يستطيع أهلي أن يرسلوني إلى مكان بعيد بحيث لا أستطيع مقابلتك .. دعنا نستمر كما نحن الآن ..

-لا بأس إذا كان هذا يناسبك .. كل ما في الأمر إنني لم أكن أريد أن أبقى هكذا في الظل .

- هذا يتيح لي أن يكون لي صديق أتحدث معه ... شخص أستطيع أن ...

ابتسمت ثم قالت : إنسان أستطيع أن أصدقه القول ... إنك لا تدري كم هو رائع هذا .

هكذا سارت الأمور ... وقالت "إيللي" في إحدى المرات :

- دعنا نتخيل أننا اشترينا أرض الغجر وأننا نبني بيتا هناك ...

كنت رويت لها الكثير عن " سانتونكس " والبيوت التي يشيدها .. حاولت أن أصف لها شكل تلك البيوت والطريقة التي يفكر بها " سانتونكس " ... ولكنني لا أعتقد أنني أحسنت الوصف لأنني لست بارعا في ذلك .. لاشك أن "إيللي" كان لديها تصورها الخاص للبيت . بيتنا ... لم نقل " بيتنا " ولكننا كنا ندرك أننا نعني ذلك هكذا . لم أستطع رؤية "إيللي" لمدة أسبوع ... جمعت النقود التي ادخرتها ولم تكن بالشيء الكثير واشتريت لها خاتما بفص أخضر وقدمته لها كهدية في مناسبة عيد ميلادها ، وأحبته كثيرا وكانت سعيدة به للغاية ، قالت إنه جميل ... لم تكن تلبس كثيرا من الجواهر ولكن الجواهر كانت حقيقية وبخصوصها من الأحجار الكريمة ولكنها أحبت الخاتم الذي قدمته لها وقالت :

- سوف يكون أحب الهدايا التي قدمت لي ...

تلقيت رسالة عاجلة منها تخطرني أنها سوف تسافر بعد حفل عيد ميلادها مباشرة إلى جنوب فرنسا ، وقالت في رسالتها :

- ولكن لا تقلق .. سوف نعود بعد أسبوعين أو ثلاثة قبل سفرنا بعد ذلك إلى أمريكا .. ونستطيع أن نتقابل بعد ذلك ...

لدي موضوع خاص أحب أن أتحدث عنه معك .

شعرت بالضيق والقلق لأنني لن أرى "إيللي" بعد سفرها إلى فرنسا ... تلقيت خلال أخبارا عن بيت أرض الغجر .. سمعت أنه بيع ولكنني لم أعرف شيئا عن المشتري ... قيل لي إن مكتبا قانونيا تولى الشراء لحساب شخص لم يصرحوا بأي ، عن شخصيته ... ذهبت إلى المكتب وعرفت من أحد الكتبة أن المشتري شخصية على درجة كبيرة من الثراء .. انتابتني حالة من القلق الشديد وتوقفت عن التفكير في الموضوع .. وذهبت لأرى أمي ... ولم أكن رأيتها منذ وقت طويل ....

الفصل الثالث

كانت أمي تقيم في نفس الشارع الذي تقيم فيه منذ عشرين سنة .. وهو شارع يضم مجموعة من البيوت القديمة الخالية من أي جمال .. ضغطت على زر جرس الباب وفتحت أمي الباب ووقفت تنظر إلي .. كانت تبدو كالعادة طويلة نحيلة شعرها الرمادي مفروق من الوسط .. وفمها كمصيدة الفئران ... وعيناها حافلتان بالشك ... كانت نظراتها صارمة ... ولكنني كنت أعلم أن في جوانحها بعض الرقة التي لا تظهرها قط .. لم تتوقف رغبتها في أن يتغير مسلكي في الحياة ... ولكن رغبتها لم تكن لتتحقق قط ... كان بيننا حاجز أبدي ... قالت أخيرا :

– أوه ... ها قد عدت ..

تراجعت قليلا لكي تفسح لي مكانا للدخول ، ودخلت إلى غرفة الجلوس واتجهت نحو المطبخ .. تبعتني وهي تقول :

– مضى زمن طويل ... ماذا كنت تفعل ؟

هززت كتفي قائلا : هذا وذاك ...

– آه .. كالعادة ... إيه ؟

– نعم كالعادة ...

– كم عدد الوظائف التي تنقلت بينها منذ رأيتك آخر مرة ؟

فكرت قليلا ثم قلت : خمسة .

– كم أتمنى أن تكبر ...

– بلغت سن الرشد منذ فترة ... وقد اخترت طريقي في الحياة . كيف كانت أحوالك ؟

قالت : كالعادة ... ليس لدي وقت أضيعه في المرض .. سكتت برهة ثم قالت : ما الذي دفعك إلى المجيء ؟

– هل ينبغي أن أجيء لسبب خاص ؟

– هذا ما تفعله عادة ...

– لا أدري لماذا تعارضين بشدة أسلوبي في الحياة ...

– قيادة السيارات الفاخرة والسفر إلى القارة ! أهذه هي فكرتك عن رؤية الدنيا ؟

– بالتأكيد .

– لن يحقق لك ذلك نجاحا كبيراً خاصة عندما ترسل برقية تقول : فيها إنك مريض وتترك زبائنك في مدينة ملعونة ..

– كيف عرفت ذلك ؟

– اتصلت شركتك بي وسألتني عما إذا كنت أعرف عنوانك ... سألتها عن سبب اتصالهم ، وقالت إنهم يرغبون في إعادة تعييني ... سألتني لماذا لم أتصل بهم بعد عودتي إلى إنجلترا .

وقلت لها : لأن لدي سمكة أخرى في المقلاة !

رفعت حاجبيها وقالت :

– ألا يزال في رأسك مزيد من الأفكار الوحشية ؟

ما الوظائف التي توليتها في الفترة الأخيرة ...

– عامل في محطة بنزين ... ميكانيكي في جراج ... كاتب مؤقت .. غاسل صحون في مطعم ملهى ليلي ..

قالت أمي بحسرة : أنت تنحدر إلى أسفل .

– كلا .. كل هذا جزء من خطة ... خطتي !

سألت عما إذا كنت أريد شايا أو قهوة ؟ واخترت القهوة .

وبينما نحن جالسان والأقداح أمامنا قالت فجأة :

– أراك مختلفا .

سألتها : كيف ؟ قالت إنها لا تدري ولكنها تراني مختلفا .

سألتها عما حدث ، وقلت إن شيئا لم يحدث . وقالت : أنت متوتر الأعصاب [illegible] سوف أسرق بنكا ..

لم أكن في حالة تسمح لها بالمزاح ، واكتفت بقولها :

– كلا .. أنا مطمئنة إلى أنك لن تفعل شيئا كهذا ...

– ولم لا ؟ هذه أسهل وسيلة اليوم لتحقيق الثراء العاجل .

– هذا يحتاج إلى عمل كثير وتخطيط ... وهو جهد شاق لا تحب أن تبذله كما أنه ليس مأمون العواقب .

– هل تعتقدين أنك تعرفين عني كل شيء ؟

– كلا .. لا أستطيع أن أدعي ذلك .. إنني لا أكاد أعرف عنك شيئا في الواقع .. لأننا مختلفان اختلاف الطباشير عن الجبن ... ولكنني أعرف عندما تفكر في الإقدام على شيء .. أنت تفكر في شيء الآن .. ما هو يا "ميكي" ؟ أهي فتاة ؟

– ولماذا تظنين أنها فتاة ؟

كنت أعرف دائما أن ذلك سوف يحدث ذات يوم ...

– ماذا تعنين بـ " ذات يوم " ؟ لقد عرفت من قبل فتيات كثيرات .

– ليس بالمعنى الذي أقصده .. لم تكن جادا في علاقتك بالفتيات حتى اليوم...

– وهل تعتقدين أنني جاد الآن ؟

– أهي فتاة يا "ميكي" – أدرت وجهي حتى أتجنب نظراتها وقلت : إلى حد ما ...

– سألتني عن طراز الفتاة ؟ وقلت إنها الطراز الذي يناسبني .

وسألتني عما إذا كنت سأحضرها لتراها ، وأجبت بالنفي ، وقلت إنني لا أريد أن أجرح مشاعرها .. وسألتني عما إذا كان ذلك خوفا من رفضها ، وقلت لها:

– ما كنت لأهتم لو أنك رفضت ...

– ربما ... ورغم هذا فسوف تهتز لرفضي ... سوف يهتز شيء بداخلك .. لأنني خمنت أشياء وربما كان تخميني صحيحا وأنت تدرك ذلك ... أنا الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع أن يزعزع ثقتك في نفسك ... أهي فتاة شريرة تلك التي امتلكت فؤادك ؟

ضحكت وقلت لها : شريرة ؟ آه لو أنك رأيتها .. إنك تدفعينني للضحك ...

– ما الذي تريده مني ؟ أنت تريد شيئا .. كان ذلك دأبك دائما ...

قلت لها : إنني أريد بعض النقود ، وقالت :

– لن أعطيك شيئا .. هل تريد أن تنفق النقود عليها ؟

– كلا ..... أريد أن أشتري حلة فاخرة ألبسها في حفل زواجنا .....

– هل ستتزوجها ؟

– إذا وافقت على الزواج .....

هزت رأسها وقالت : لو أنك صارحتني بالحقيقة .. إنه الشيء الذي كنت أخشاه دائما .. أن تسيء اختيار فتاتك .....

صحت بغضب قائلا : أسيء الاختيار ؟ ! يا للجحيم !

غادرت البيت غاضبا وصفقت الباب ورائي بعنف ......

عندما عدت إلى البيت وجدت برقية في انتظاري ... طلبت مني "إيللي" أن أقابلها في المكان المعتاد غدا .. في الساعة الرابعة والنصف ...

كانت "إيللي" مختلفة تماما عما رأيتها آخر مرة ... كانت شديدة الاعتداد بالنفس .. هل يمكن أن يحدث كل هذا الفارق لأنها كبرت عاما ؟

أخبرتني أنها ذهبت لترى ذلك البيت الذي بناه صديقي المهندس في "الريفييرا" .....

وأنها ذهبت مع زوجة أبيها وعمها لتناول الشاي مع " ديمتري كونستانتين " صاحب البيت ، وسألتها عما إذا كانت زوجة أبيها تعرف الرجل ، وقالت إن "جريتا" هي التي دبرت اللقاء ورتبت كل شيء ، وقلت باعتراض : "جريتا" مرة أخرى ؟

وسألتها عما إذا كانت "جريتا" رافقتهم في الذهاب إلى البيت ، وقالت إن زوجة أبيها لا تعاملها على أنها فرد من الأسرة .. ثم بدأت تتحدث عن البيت الذي طالما حلمنا به .. البيت الذي يستطيع صديقي " سانتونكس " أن يبنيه لنا بعد هدم البيت القديم في أرض الغجر ... كانت تتحدث عني وعنها لأول مرة بطريقة الهمج ... وقالت إن ذلك سوف يتم بالتأكيد بعد زواجنا .... لقد بلغت سن الرشد وأصبح من حقها أن تفعل ما تشاء .....

قلت لها بمرارة : إن الحلم لن يتحقق لأن البيت قد بيع ، وقالت ضاحكة : إنها تعرف ذلك ، لأنها هي التي اشترت البيت .. قالت : إننا نستطيع أن نتزوج خلال أسبوع ، وإننا لن نخطر أحدا بزواجنا وليضربوا بعد ذلك رؤوسهم في الجدران ... قلت لها : إنني ذهبت لزيارة أمي ، وسألتني عما إذا كنت أحب

أمي ، وقلت إنني لا أعرف .. وإن أمي تعرف عني أسوأ ما في ، وقالت ضاحكة :

– لابد من وجود شخص يعرف هذا الجانب .

سألتها عما إذا كانت مرتاحة لزواجها مني ، وكيف يمكن التوفيق بين فقري وجهلي ، وبين ثرائها ومركزها الاجتماعي .....

قالت :

– هل تريد أن تعرف رأيي ؟ لن نعبأ بما يقوله الناس .. سوف يبني لنا صديقك البيت الذي نريده .....

كان بعض الناس يجلسون بالقرب منا، ولكنني لم أكن أرى شيئا في الوجود سوانا ، وقالت " إيللي " فجأة : إنها تريد أن تصارحني بشيء ، وقلت لها لاداعي لذلك ... ولكنها قالت بإصرار :

– ولكنني يجب أن أصارحك لأن الأمر يتعلق بأرض الفجر ...

– لقد قلت إنك اشتريته ولكن كيف ؟

– وكلت بعض المحامين لشرائه ... إنه استثمار جيد لأن قيمة الأرض سوف ترتفع ...

تعجبت لأن "إيللي" الفتاة الرقيقة المترددة تتحدث بثقة عن البيع والشراء والأعمال ... قالت : إنها لم تكلف محامي العائلة بإتمام هذه الصفقة وإن كل شيء تم في سرية تامة ؟ وإنها وقعت العقد ، وقالت إن لديها شيئا آخر تحب أن تقوله ، وقلت لها إنني لا أريد أن أسمع شيئا آخر ، وقالت :

– لقد قلته لك بالفعل أثناء الحديث ولكن يبدو أنك لم تفطن له .. دعوتني بالفتاة الغنية البائسة .. وأنا غنية بالفعل .. على درجة واسعة من الثراء .. معظم الثروة من البترول .. ورثتها عن جدي وكان أبي الوريث الوحيد لأن شقيقيه الآخرين قتلا .. أحدهما في كوريا والآخر في حادث سيارة ... ترك أبي لزوجته قبل وفاته حصة معقولة لهذا لم تحصل على المزيد بعد موته .. هكذا أصبحت الثروة الضخمة ملكا خالصا لي .. وأنا في الواقع أعتبر واحدة من أغنى السيدات في أمريكا .

قلت لها بدهشة : يا إلهي .. لم أكن أعرف ... أنت على حق ... لم أكن

أتصور أن الأمر كذلك .....

– لم أكن أريدك أن تعرف .. لم أشأ أن أخبرك .. لهذا كنت خائفة عندما أخبرتك أن اسمي " فيتيلا جودمان " ... الاسم في الحقيقة " جوتمان " ... لهذا كنت محاطة بحراسة مخبرين خصوصيين كالسجينة ... يمنعون الشبان من الاقتراب مني ..... ولكنني أصبحت حرة الآن .. وإذا لم يكن لديك مانع .

– ليس لدي مانع بالتأكيد .. سوف نستمتع على أوسع نطاق .. ولا أظنك ستكونين فتاة واسعة الثراء بالنسبة لي .....

ضحكنا في سعادة وقالت إن بساطتي هي التي تجعلها معجبة بي .. ارتعدت فجأة وسألتها عما إذا كانت تشعر بالبرد وقالت :

– كلا .... لقد تذكرت تلك الغجرية ...

– لا تعيريها أهمية فهي امرأة مجنونة .

سألتني عما إذا كنت أومن حقا بأن لعنة أطلقت على أرض الفجر ، وقلت لها إن هذا شأن الغجر .. يطلقون لعناتهم على أي شيء .. وقلت لها إننا نستطيع الشراء بيت في مكان آخر إذا لم تكوني تريدين أرض الفجر ، ولكنها قالت بإصرار :

– كلا .. لا أريد مكانا آخر ... لأنه المكان الذي رأيتك فيه لأول مرة ... لن أنسى ذلك ما حييت ..

– إذا أرضنا لن أنسى ذلك قط ...

– سوف يكون ذلك هو المكان الذي يقام فيه بيتنا ... وسوف يبنيه صديقك " ماكويكس " .

– أتمنى أن يكون على قيد الحياة .. تركته آخر مرة في أشد حالات المرض .

– إنه حي ... لقد ذهبت لأراه .

– هل التقيت به حقا ؟

– نعم ... عندما كنت في جنوب فرنسا ..

كان يعالج في مصحة هناك .

– أنت فتاة مدهشة حقا ... الأشياء التي تفكرين فيها والتي تعملينها رائعة .

– إنه شخصية رائعة ولكنه مخيف بعض الشيء .

– هل أفزعك ؟

– نعم .. أفزعني بشدة ..

– هل تحدثت معه عنا ؟

– نعم ... رويت له كل شيء عن أرض الغجر والبيت الذي نفكر في بنائه ... وقال : إننا نخاطر بالاعتماد عليه لشدة مرضه ..... وأضاف أنه سيعاين الموقع ويرسم خرائطه ويرجو أن يمتد أجله حتي يبني لنا البيت ويرانا نعيش فيه ، ثم سألني عما إذا كنت أعرف جيدا عواقب زواجي منك . وقلت : له إنني أعرف بالتأكيد ، ومنذئذ أبدى دهشته ...

وسألتها عما قاله بعد ذلك ، فقالت :

– قال .. أنت يا مس " جوتمان " سوف تعرفين جيدا خطواتك لأنك اخترت طريقك .. ولكن المشكلة في " مايك " .. إنه لم يبلغ درجة النضج التي تسمح له باختيار طريقه ، وقلت له إنك ستكون آمنا معي ...

كانت تتكلم بثقة ، وشعرت بالغضب لما قاله " سانتونكس " ... كان يشبه أمي ... كانت تعتقد دائما أنها تعرف عني أكثر مما أعرفه عن نفسي .. وقلت بعصبية :

– إنني أعرف طريقي جيدا ... إنني أسلك الطريق التي سوف نسلكها معا .

قالت "إيللي" إن عملية هدم البناء قد بدأت بالفعل ، ولا بد من الإسراع ثم سألتني :

– ما رأيك في أن يتم زواجنا يوم الثلاثاء القادم ؟

إنه يوم لطيف من أيام الأسبوع .

– لن يكون هناك أحد سوانا ؟

وقالت "إيللي" : فيما عدا "جريتا".

صرخت قائلاً بانفعال :

فلتذهب "جريتا" إلى الجحيم ! لن تحضر زفافنا ... لن يكون هناك سوانا ونستطيع أن نختار الشهود من الطريق .. عندما أعود بالذاكرة إلى ذلك الماضي ، أرى ذلك اليوم أسعد أيام حياتي ....

الفصل الرابع

هكذا سارت الأمور ... تزوجنا أنا و " وإيللي " قررنا الزواج وتزوجنا ... كان ذلك جزءا من الأمر ككل ، وليس خاتمة لقصة رومانسية .. تزوجنا وأحس كل منا بالسعادة ، وانقضى وقت ليس بالقصير قبل أن يتصل بها أحد وتبدأ المتاعب التي أعددنا أنفسنا لمواجهتها .. تم الأمر بهدوء تام ... مع رغبة "إيللي " في الحرية دبرت الأمور بذكاء شديد ونجحت " جريتا " في اتخاذ الخطوات المناسبة للتغطية على ما ندبره وظلت يقظة وراءنا ... وسرعان ما أدركت أنه لا يوجد في الواقع أحد يهتم بما تفعله "إيللي" ، كانت لها زوجة أب مشغولة بحياتها الاجتماعية الخاصة وبمغامراتها الغرامية .. وإذا لم تكن "إيللي" راغبة في مرافقتها إلى أي مكان في العالم فلم تكن هناك حاجة إلى مطالبتها بذلك ، فقد كان لـ "إيللي" خدمها ووصيفاتها ولها أن تذهب إلى أي مكان تختاره .. إذا كانت تريد السفر إلى لندن بمناسبة بلوغها سن الرشد فما المانع ؟

إذا أرادت فيلا في " الريفييرا " أو في " كوستا برافا " أو يختا أو أي شيء آخر فإن ملايينها كفيلة بتحقيق رغبتها في الحال .

كانت "جريتا" على درجة عالية من الكفاءة في ترتيب الأمور ، تعامل زوجة الأب بطريقة ممتازة ، وكذلك القلة من أقارب "إيللي" .. وكان يحيط بـ "إيللي" مجموعة كبيرة من المحامين ورجال الأعمال الذين يتولون المسائل القانونية والأمور المتعلقة بثروتها الضخمة ، وكنت أراقب الموقف من بعيد وأنا لا أعرف شيئا عن مثل هذه الأمور .. لقد نشأت بين هؤلاء الناس ولا شك أنها اعتادت [illegible] .. المهم أني وجدت حياتي الجديدة ممتعة ومثيرة للغاية .. فالأغنياء لا يعرفون كيف يعيش الفقراء .. كما أن الفقراء يجهلون أساليب حياة الأغنياء .. وقد سألت "إيللي" ذات مرة عما إذا كان أقاربها سوف يثيرون المتاعب فقالت إنهم سيتصرفون بشناعة وعلي أن أتجاهلهم ، وقلت لها:

– أليس ذلك ما أعنيه .. هل سوف يزعجونك كثيرا ؟

– في الواقع ذلك ولكنني لن أعيرهم اهتماما .. لأنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا

شيئا ...

– ولكنهم سوف يحاولون ؟

– من المحتمل أن يحاولوا شراءك لكي تذهب.

– شرائي ؟ !

– لا تنزعج هكذا .. ربما لم أحسن التعبير ... أنت تعرف أنهم اشتروا "ميمي ثومبسون" أولا .

– "ميمي ثومبسون" ؟ أليست تلك التي يلقبونها بوريثة آبار البترول ؟

– نعم .. لقد هربت وتزوجت أحد حراس الشواطئ ..

قلت لها باستياء : لا تنسي يا "إيللي" أنني عملت ذات يوم حارسا ليليا ..

– أحقا ؟ يا له من أمر مضحك ... هل مكثت في العمل طويلا ؟

– كلا بالتأكيد ... اشتغلت موسما واحدا .. ولكن ما الذي حدث لـ "ميمي ثومبسون" ؟

– أعتقد أنهم عرضوا ... مائتي ألف دولار ...

قلت لها ممازحا : أنت تثيرين شهيتي يا "إيللي" ... أنا لم أقتن زوجة ، وإنما اقتنيت شيئا أستطيع أن أقايض عليه بمبلغ ضخم من المال .... الشيء المضحك أنني صدمت بالفعل ... شعرت بالاستياء نحو ذلك المجتمع من الأثرياء. ورغم هذا فقد كنت أعرف أن "إيللي" في قرارة نفسها مخلوقة رقيقة عذبة، وليس معنى هذا أنها تجهل الأشياء .. لم تكن تعرف شيئا عن عالمي .. عالم البحث عن عمل ، وعصابات سباق الخيل والمخدرات .. لم تكن تعرف معنى أن يولد الإنسان في وسط محترم ، ولكنه مطالب بالسعي دائما للحصول على المال .... أن تكون للإنسان أم تحفر الصخور بيديها لكي توفر لابنها الحياة الكريمة .. كانت تشعر بالمتعة ، وهي تستمع إلى قصة حياتي . كما كنت أستمتع بالاستماع إلى قصتها .. كان كل منا يستكشف عالما غريبا عنه .. تزوجنا في مكتب السجلات في "بليموث" ... لم يعرف الصحفيون أن وريثة "جوتمان" في انجلترا ... خرجنا بعد عقد الزواج أحرارا .. مستر ومسز "مايكل روجرز" ! قضينا أسبوعا في فندق ساحلي ثم سافرنا للخارج .. أمضينا ثلاثة أسابيع ممتعة ونحن نسافر إلى حيث نشاء غير عابئين بالمصاريف .. ذهبنا إلى اليونان وفلورنسا وفينيسيا والريفييرا الفرنسية ...

نسيت نصف أسماء تلك الأماكن .. ركبنا الطائرات واستأجرنا يختا .. وأثناء رحلتنا فهمت من "إيللي" أن "جريتا" بقيت في الوطن ، تؤدي مهمتها في التغطية علينا ، تسافر إلى شتى المدن وتبعث من كل منها بكارت من الكروت البريدية التي تركتها لها "إيللي" ، وقالت "إيللي" ضاحكة :

– عندما يكتشفون الحقيقة سوف ينقضون علينا كالنسور الجارحة ... ولكن حتى تحين تلك الساعة يجب أن نستمتع بكل لحظة ...

– وماذا بشأن "جريتا" ؟ ألن يغضبوا منها ؟

وقالت "إيللي" : سوف يغضبون منها ولا شك .. ولكن "جريتا" لن تكترث فهي امرأة صلبة .

– ألن يحول ذلك دون حصولها على وظيفة أخرى ؟

– ولماذا تحصل على وظيفة أخرى ؟ سوف تأتي لتعيش معنا قلت لها بحزم : ثم سألتني بقلق عما أعنيه وأخبرتها أني لا أريد أحدا معنا .

وقالت : لن تقف "جريتا" حائلا بيننا .. وسوف تكون مفيدة للغاية .. في الحقيقة لا أعرف كيف أتصرف بدونها ... إنها ترتب لي كل شيء ...

فيبتسم وأنا أقول لها : لا أحب ذلك .... فضلا عن أننا نريد البيت الذي حلمنا به يا "إيللي" .... نريده لنا وحدنا ...

– سوف يكون شاقا على "جريتا" ألا تجد مكانا تعيش فيه ... ولا تنس أنها ظلت معي أربع سنوات ... وهي التي ساعدتني في الزواج .

– لا أريد أن أراها بيننا طول الوقت !

– ولكنها ليست كذلك يا "مايك" .. إنك لم ترها حتى الآن .

– ولكنني أريد أن نكون وحدنا يا "إيللي" ...

طيبت "إيللي" خاطري برقة وقررنا الكف عن الحديث في هذا الموضوع مؤقتا والتقينا أثناء رحلاتنا بـ "سانتونكس" ....

كان ذلك في اليونان .. كان يقضي فترة نقاهة في كوخ صغير لأحد الصيادين بالقرب من البحر ... هالتني حالته ....

الآن يبدو أسوأ بكثير مما كان عليه عندما رأيته آخر مرة منذ عام ..

استقبلنا بحرارة وقال : هكذا فعلتما ما تريدان ..

وقالت "إيللي" : نعم .. والآن سوف تبني لنا البيت ؟

قال إنه انتهى من رسم التخطيط واستجاب لأوامر " إيللي "

وقالت "إيللي" :

– لم تكن أوامر ... كانت مجرد رجاء ....

أخبرته أننا اشترينا الموقع ، وقال إن "إيللي" أرسلت له برقية تخبره بذلك وبعثت له بعشرات الصور الفوتوغرافية للمكان ، وقالت "إيللي" :

– لا بد أن ترى الموقع أولا ... ربما لا يعجبك .

وقال : إنني أحبه ...

– لا تستطيع أن تقول ذلك حتى تراه ..

وقال " سانتونكس " ضاحكا : ولكنني رأيته يا صغيرتي ، ركبت الطائرة منذ خمسة أيام والتقيت بواحد من محاميك .. وقد بدأت عمليات تمهيد الأرض وهدم البيت القديم ..... وعندما تعودين إلى انجلترا سوف تجدينني في انتظارك .. عرض عليها الرسوم التي أعدها ، وسألتني عما إذا كانت تروقني ، وقلت لها :

– نعم ... هذا ما كنت أحلم به .. إنه يتفق تماما مع أحلامي ...

قال لي " سانتونكس " : اعتدت يا " مايك " أن تحدثني كثيرا عنه .. كنت رجلا تعشق بيتا لا ينتظر أن تمتلكه .. بيتا لن تراه ولن يوجد في الحقيقة..

وقالت "إيللي" بحماس : ولكنه سوف يقام .. سوف يقام .. أليس كذلك؟ قال "سانتونكس " : إذا شاء الله .. الأمر لا يتوقف على رغبتي .. سألته بارتياب : ألا تشعر ببعض التحسن ؟

– لن تتحسن حالتي قط ... استبعدي تلك الفكرة من رأسك تماما .....

قلت له إن الأطباء كثيرا ما يخبرون المرضى أنهم سيموتون بعد أشهر ولكن الذي يحدث أن المريض يعيش خمسين عاما أخرى ، وقال " سانتونكس " :

– يعجبني تفاؤلك يا " مايك " ... ولكن مرضي ليس من هذا النوع .. إنهم يغيرون دمي في المستشفى بين الحين والحين ليمتد أجلي قليلا .. وفي كل مرة أزداد ضعفا ووهنا .

قالت "إيللي" : أنت شجاع جدا ..

وقال " سانتونكس " : أوه .... كلا ... لست شجاعا .... عندما يكون الأمر مؤكدا لا يصبح أمام الإنسان سوى أن يبحث عن السلوى ...

– في بناء البيوت ؟

– كلا ... ليس الأمر كذلك .... توجد وسائل أخرى وقد تكون بالغة الغرابة في بعض الأحيان .

قلت له : إنني لا أفهمك ...

– كلا ... لن تفهمني يا " مايك " ولا أعتقد أن " إيللي " تستطيع هي الأخرى أن تفهم .. يوجد شيئان يسيران جنبا إلى جنب ... الضعف والقوة .. ضعف اكتساب الحيوية وقوة يأس الطاقة ...

ومن ثم لا أهمية لما تفعله بعد ذلك ، لأنك ستموت على أي حال .. لهذا لا يهم ماذا تفعل الآن ! لا شيء يعوقك .. لا شيء يدفعك إلى الوراء ... أستطيع أن أمشي في شوارع أثينا وأطلق النار على رجل أو امرأة لا يعجبني وجهها .. فكر في ذلك .. قلت له إن الشرطة يعتقلونك ، قال :

– بالتأكيد ولكن ماذا باستطاعتهم أن يفعلوا ؟ يزهقون روحي ؟

هناك قوة أقوى من القانون الطبيعي سوف تقوم بهذه المهمة في أقصر وقت هكذا أصبح ملكا خلال الفترة المتبقية لي أفعل فيها ما أشاء ...

عندما تركناه بعد ذلك ونحن في طريق العودة إلى أثينا قالت لي " إيللي " : – إنه شخص غريب الأطوار .. لهذا فأنا أرتاع منه ...

– ترتاعين من " رودلف سانتونكس " ؟ لماذا ؟

– لأنه ليس كالأشخاص الآخرين ... إحساسه بأنه سيموت قريبا يزيد من مثاليته وكبريائه .. سكتت "إيللي" برهة ثم أردفت تقول :

– تخيل أنه بني لنا بيتنا وذهبنا لنرى البيت ووجدناه يرحب بنا على الباب ثم.

– ثم ماذا يا "إيللي" ؟

– ثم أغلق الباب وراءنا وضحى بنا .. ذبحنا !

– لقد أخفتني يا "إيللي" الأشياء التي تفكرين فيها ..

– مشكلتنا معا يا " مايك " أننا لا نعيش في عالم الواقع .... نحلم بأشياء خيالية لا يمكن أن تحدث ...

– لا تفكري في التضحية مقرونة بأرض الفجر ...

– واللعنة التي أطلقت على المكان ؟

فصحت قائلا بانفعال : انسي تلك اللعنة .. لا وجود لشيء كهذا ... كان ذلك في اليونان .

الفصل الخامس

أعتقد أن ما حدث في اليوم التالي كان أثناء وجودنا في أثينا عندما التقت "إيللي" فجأة ببعض المعارف في " الأكروبول " .. اندفعت سيدة في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها نحو "إيللي" قائلة :

–" إيللي جوتمان " ؟ لم أكن أتصور أن أقابلك هنا .. كيف حال " كورا " ؟ هل هي هنا أيضا ؟

– لا .. أعتقد أنها في " سالزبورج " .

التفتت السيدة نحوي وقالت "إيللي" بهدوء :

– اسمحي لي أن أقدم لك المستر " روجرز " ... " مسز بننجتون " .

سألتها السيدة عن المدة التي ستقضيها في أثينا . وأجابت "إيللي" أنها مسافرة في الغد .. استأذنت مسز " بننجتون " لتلحق بالمجموعة التي جاءت في رحلة معها . وقالت لي "إيللي" :

– هذا يسوي الأمور .....

سألتها عما تعنيه وقالت إنها مضطرة الآن لكتابة خطاب لـ "كورا" أو العم "فرانك " وربما للعم " أندرو" . وسألتها عمن يكون العم " أندرو " لأنني لم أسمع عنه قبل ذلك . وقالت "إيللي" :

–" أندرو لبنكوت " .. ليس عمي في الحقيقة .. إنه الوصي الرئيسي علي .. وهو محام مشهور. سألتها عما ستقوله في خطابها .. قالت إنها ستخبرهم أنها تزوجت ... فلا بد من أن تعرف زوجة أبيها والعم "فرانك" والعم"أندرو" ... سألتها عن رد الفعل الذي ستحدثه خطاباتها فقالت :

– ستكون صدمة وسوف يثورون .. أتوقع أن يطلبوا لقاءنا في نيويورك .. هل يروقك ذلك؟ نظرت إلي بقلق . قلت :

– لا .. لا يروقني ذلك قط ....

– من المحتمل إذن أن يأتوا إلى لندن .. أو بعضهم على الأقل ... هل تفضل ذلك ؟

لا ... كل ما أريده أن أكون معك وأن نرى معا البيت الذي نحلم به يبنى طوبة طوبة بمجرد أن يصل " سانتونكس " إلى هناك .

– على أية حال لن يستغرق الاجتماع مع الأسرة وقتا طويلا .... إما أن يطيروا إلينا أو نطير إليهم ...

– ظننت أنك قلت إن زوجة أبيك في " سالزبورج " ؟

– أوه .. قلت ما خطر على بالي لأنه سيبدو غريبا ألا أعرف مكانها ... حسن .. سوف نذهب إلى الوطن ونلتقي بهم جميعا .. أرجو ألا يزعجك ذلك كثيرا يا " مايك " .

– تعنين أسرتك ؟

– نعم ... هل يزعجك أن يكونوا سخفاء معك ؟

– أعتقد أن هذا هو الثمن الذي ينبغي أن أدفعه لزواجي منك .. وسوف أتحمل ذلك .. وقالت " إيللي " مفكرة : وهناك أمك وقلت باستياء : هل تحاولين أن تجمعي بين زوجة أبيك بثرائها وأمي التي تحيا في الشارع الخلفي ؟ ما الذي تتصورين أن تقوله كل منهما للأخرى ؟

– لو أن " كورا " كانت أمي فربما وجدنا الكثير من الحديث المشترك ... أرجو ألا تكون متأثرا يا " مايك " بالفوارق الطبقية ... وقلت لها بمرارة : إنني لا أعرف الملابس المناسبة لكي أرتديها ولا أعرف الأسلوب المناسب للحديث .. ولا أعرف شيئا عن الفن والموسيقى..

طلبت منها في النهاية ألا تحاول الجمع بين أمي وأسرتها ، وقالت إنها تود مقابلة أمي عند رجوعنا إلى انجلترا ، وقلت بإصرار : كلا ...

نظرت إلي بارتياع ، وسألتني عما إذا لم أكن قد أخبرتها بزواجنا ، وقلت : لم أخبرها بعد .. سألتني : لماذا ؟ . لم أجب ، وقالت :

– ألم يكن أقل شيء أن تخبرها وتأخذني إليها بمجرد عودتنا إلى انجلترا؟

قلت مرة أخرى : كلا .. كانت لهجتي أخف حدة في هذه المرة ، وسألتني ببطء:

– ألا تريد مني أن أقابلها ؟

كان من الواضح أنني لا أريد لهذا اللقاء أن يتم . وأخبرتها أن هذا اللقاء يؤدي إلى المشاكل ، لأنني تزوجت دون استشارتها ، وهزت" إيللي" رأسها قائلة:

إن الناس لا يفكرون الآن بهذه الطريقة . ورجوتها أن تنسى هذا الموضوع . وعندما قالت : إنها ترى ذلك تصرفا غير كريم قلت لها : إنني أعرف أمي خيرا منها .

وإنني سوف أخبرها على أي حال أنني تزوجت .. فكرت في أنه أسهل لي أن أكتب لها من الخارج قبل عودتي .. وعندما رأيت "إيللي" في المساء تكتب الخطابات للعم "أندرو" ، والعم "فرانك" وزوجة أبيها "كوراقان" "ستوفيسانت" ، كتبت بدوري خطابا مختصرا لأمي ... أخبرتها أنني تزوجت منذ ثلاثة أسابيع فتاة رائعة الجمال شديدة الرقة .. وأن الفتاة على درجة كبيرة من الثراء ، وأننا سنبني بيتا رائعا ، وأننا في الوقت الحاضر نطوف بأوروبا ... وكانت نتائج مراسلاتنا مختلفة ... وصلني بعد أسبوع خطاب من أمي تعرب فيه عن سعادتها وتتمنى لي السعادة ... أما بالنسبة لـ "إيللي" ، فقد حرك خطابها النار تحت الرماد ... ووجدنا أنفسنا محاطين بمجموعة من الصحفيين يريدون أن يعرفوا أخبار زواجنا الرومانسي .

ونشرت الصحف مقالات عن زواج وريثة " جوتمان " . ووصلت بعض الخطابات من محاميها ورجال البنوك . وتم الاتفاق على اجتماع رسمي .. التقينا بـ "سانتونكس" في موقع أرض الغجر واطلعنا على الرسومات وناقشنا التفاصيل ثم ذهبنا إلى لندن لنقيم في الجناح الذي حجزناه في فندق "كلاريدج " .. ووجدنا في استقبالنا كوكبة من المستقبلين .. كان المستر " أندرو لبنكوت " أول من وصل .. كان شيخاً طويلا نحيلا وعرفت من لهجته أنه أمريكي ....

استقبل "إيللي" ببشاشة وسلم عليها بحرارة وقال :

– أنت تبدين في أحسن حال .. أراك مزدهرة ...

– وكيف حال العم " أندرو " ؟ كيف أتيت ؟ هل ركبت الطائرة ؟

– لا ، أتيت بالباخرة " كوين ماري " .. أهذا زوجك ؟

قالت باسمة : نعم .. هذا " مايك " ...

وقلت بارتباك وأنا أتظاهر بالهدوء : كيف حالك يا سيدي ؟

عرضت عليه أن يشرب شيئا ورفض بأدب ، ثم جلس وأخذ ينقل نظراته بيني وبين "إيللي" ، ثم قال :

– أنتم معشر الشباب تتسببون لنا في صدمات ... هل كان كل شيء رومانسيا ؟

قالت "إيللي" : أنا آسفة .. أنا في الواقع شديدة الأسف .

وقال المستر "أندرو" بجفاف : أحقا ؟

وقالت إنها رأت أن تلك أفضل وسيلة لإخطارهم . وقال :

– لا أشاركك هذا الرأي يا عزيزتي ...

قالت "إيللي" إن زواجنا أمر يخصنا وحدنا ، وقالت إنها تلقت خطابين من "كوريا" ، وقال المستر " أندرو " :

– ولكنك لجأت إلى سلسلة من أساليب الخداع وساعدتك على ذلك إنسانة أخرى ؟

– أتعني "جريتا" ؟ إنها لم تفعل سوى ما طلبته منها ... هل الجميع غاضبون منها ؟

– بالتأكيد ... لقد كانت موضع ثقة الجميع .....

– لقد بلغت سن الرشد وأستطيع أن أفعل ما يحلو لي ...

– أنا أتحدث عن الفترة السابقة على بلوغك سن الرشد .. لقد بدأ الخداع خلال تلك الفترة :

وتدخلت في الحديث قائلا : يجب ألا تلقي اللوم على "إيللي" يا سيدي ... لم أكن أعرف أن كل أقاربها في وطن آخر ولم يكن من السهل الاتصال بهم .

قال المستر " لبنكوت " إن "جريتا" أرسلت بطاقات بريدية من بلاد مختلفة ، وكانوا [illegible] بدهاء ، وسألني عما إذا كنت قد التقيت بـ "جريتا" ، فأخبرته أنني لم أرها ، وأعرب عن دهشته لأنه كان يعتقد أنها [illegible] زواجنا .. وقال بعد لحظة صمت :

– أعتقد أنكما سوف تواجهان عاصفة من النقد من أسرة "إيللي" ... لقد

حاولت تخفيف الموقف على قدر استطاعتي ..

سألته باسمة عما إذا كان ذلك يعني أنه يقف في صفها ، فقال إنه كمحام لابد أن يواجه الموقف على أساس أنه عملية قد تمت .. وقال إنه سمع أنها اشترت قطعة أرض تنوي أن تقيم عليها بيتا ... وسألها : هل تنوين الإقامة في هذا البلد ؟

– نعم .. هل لديك اعتراض على ذلك ؟ قالت ذلك بغضب وأخبرته أنها أصبحت بريطانية بزواجها مني وقال :

– من حق " فينيلا " أن تعيش في الوطن الذي تختاره .. ولكن لا تنسي يا "إيللي" : أن البيت في "ناسو" ملك لك ..

قالت "إيللي" : إنها كانت تظن أن "كورا" تمتلك ذلك البيت.

وأكد لها المستر " أندرو " أن البيت ضمن أملاكها كوريثة لحقول البترول في الغرب .. لم أدرك ما إذا كان الرجل يريد بذلك أن يوقع بيني وبين " إيللي" ، أم أنه يهدف لمعرفة ما إذا كنت أجري وراء ثروتها وبذلك يضعني في حالة من القلق ...

قال المحامي بعد ذلك : إنه أحضر معه مجموعة من الأوراق القانونية لتوقع "إيللي" عليها ، وأخبرته بأنها على استعداد لذلك في أي وقت ، وقال إن لديه مهمة أخرى في لندن وأنه سوف يعود بعد عشرة أيام ....

رأيت ذلك وقتا طويلا .. وسألت نفسي : هل هذا الرجل صديق أم عدو ؟

انتبهت على صوت المحامي يطلب من "إيللي" أن تتركه على انفراد معي ، وقالت : إنه يستطيع أن يتحدث معنا معا ، وقلت لـ "إيللي" في شيء من السخرية :

– يريد العم " أندرو " أن يختبرني .. وهذا من حقه !

دخلت معه إلى غرفة الاستقبال الصغيرة وقلت له : أطلق مدفعيتك فأنا رهن إشارتك !.

ابتسم وأخبرني أنه يحب أن يؤكد لي أنه صديق وليس عدوا ، ورغم إحساسه أنني أحب "إيللي" ، إلا أنه يحب أن يوجه نظري إلى أنها شديدة الحساسية

سريعة التأثر ، ثم أضاف :

– سوف أتحدث معك بكل صراحة وأكشف أوراقي فوق المائدة .. لست الشاب الذي كنت أحب لـ "إيللي" أن تتزوجه ولست من الطراز الذي كانت تتمناه أسرتها ...

– تعني شخصا أنيقا ثريا ؟

– ليس ذلك تماما ... فقد كان أبوها في شبابه عاملا واستطاع بكفاحه أن يصبح من أصحاب الملايين .

– ومن يدريك أنني لن أصبح من أغنى الرجال في انجلترا ؟

– كل شيء جائز .. هل يبلغ طموحك هذا الحد ؟

– ليس مجرد الحصول على المال .. أريد أن أفعل شيئا .

أعني .. تردد قليلا وقال المستر "أندرو" :

– فلنقل إنك طموح .. هذا شيء طيب ..

وقلت بحماس : إنني أبدأ من الصفر .. أنا لا شيء ولا أستطيع أن أدعي غير ذلك ...

– هذه صراحة محمودة وأنا أقدر لك تلك الصراحة ... والآن أحب أن أقول لك يا " مايكل " إنني لست قريبا لـ "إيللي" .... وإنما أنا الحارس الوصي على الثروة التي تركها لها أبوها ... ومن ثم أتحمل مسؤولية نحوها ... لذلك أريد أن أعرف كل ما أستطيع معرفته عن الزوج الذي اختارته .

قلت له إنه يستطيع القيام بما يشاء من التحريات عني ، ولكنه أخبرني أنه يريد أن يعرف مني كل شيء ... وبالتأكيد لم يعجبني ذلك ... وحدثته عن والدتي وبالغت بعض الشيء وإن كنت قد ذكرت له قدرا كبيرا من الحقيقة ولم أقل كل الحقيقة ... قلت له إن أبي كان سكيرا ولكن أمي طيبة وقد كدت لكي تنفق على الدراسة ... لم أخف عنه نشاطي في مجال العمل وكيف أنني كنت أنتقل من وظيفة إلى أخرى .... استمع إلي مشجعا ، ووجه إلي بعض الأسئلة ... وقال لي في النهاية :

– لقد اتبعت في حياتك أسلوب المغامرة يا مستر " روجرز " .... ليس هذا

سيئا ... حدثني عن هذا البيت الذي ستبنيه مع "إيللي" .... أخبرته أنه يقع في مدينة تسمى " ماركت كادويل " وقال إنه ذهب بالأمس ليرى المكان ، وشعرت بالقلق وأخبرته أنه سيكون بيتا رائعا وأن المهندس الذي يتولى البناء يدعى "رودولف سانتونكس " ، وقال إنه مهندس مشهور وأنشأ عدة مبان في أمريكا إلا أنه لسوء الحظ معتل الصحة ، وقلت إن الرجل يعتقد أنه سوف يموت ولكنني أرى أنه سوف يشفى ، وقال إنني متفائل .

ثم قال :

– لقد أجريت مشاورة مع المستر " كروفورد " وعندما سألته عمن يكون المستر "كروفورد" قال إنه أحد الشركاء في مؤسسة قانونية بريطانية ، وهو الذي قام بشراء أرض الغجر لحساب "إيللي" ، وإن الصفقة كانت موفقة لأن الشراء تم بثمن معقول ، وقلت له إن السبب في ذلك اللعنة التي انصبت على المكان ، وقال المستر " أندرو " :

– معذرة يا " مايكل " ... ماذا قلت ؟

حدثته عن تحذير الغجرية والقصص التي راجت عن جريمة ارتكبت في ذلك المكان ، وكيف انتقلت ملكية المكان منذ وقوع الجريمة من شخص إلى آخر لأن واحدا من المشترين لم يمكث طويلا ، وسألني المستر " أندرو " :

– ألا تخشى أنت و "إيللي" من اللعنة ؟

قلت له إننا لا نؤمن بذلك الهراء ومن حسن حظنا أننا حصلنا على المكان بثمن بخس .. وقال المستر "لبنكوت" :

– كل ما أرجوه ألا تسمع "إيللي" كثيرا من القصص التي تشيع في المكان عندما تنتقلان إلى البيت الجديد .....

– سوف أجنبها ذلك قدر استطاعتي .. ولا أعتقد أن أحدا سوف يقول لها أي شيء .....

سأل المستر "أندرو" بعد برهة :

– سوف أتحدث في موضوع شائك بعض الشيء ... قلت منذ قليل إنك لم تلتق بـ "جريتا أندرسون" ....

– نعم ... لم ألتق بها قط .....

– غريب ... أمر بالغ الغرابة ... ما الذي تعرفه عنها ؟

– أعرف أنها كانت مع "إيللي" منذ بعض الوقت .

– كانت مع "إيللي" منذ كانت في السابعة عشرة من عمرها .....

وكانت تشغل وظيفة ذات مسؤولية وتستوجب الإخلاص .... جاءت في البداية الولايات المتحدة لتعمل سكرتيرة ومرافقة لـ "إيللي" عندما كانت زوجة أبيها تسافر إلى الخارج وكان ذلك يتكرر كثيرا .. كانت تحمل خطابات توصية ممتازة بعضها سويدي والآخر ألماني ... وأصبحت "إيللي" مع مرور الوقت شديدة الارتباط بها .

– ألا يضايقك أن أقول لك هذا ؟

– أ ... حسن .... لم يكن ذلك يعنيني ... ولكنني كنت أشعر في بعض الأحيان بالضيق ....

– ألم تطلب منك أن تقابل " جريتا " ؟

– حسن ... من الصعب أن أشرح ذلك ولكن .. ربما اقترحت علي ذلك مرة أو مرتين .. ولكننا كنا مشغولين أحدنا بالآخر ولكنني في الواقع لم أكن أرغب في الالتقاء بـ "جريتا" .. لم أكن أريد أن يشاركني في "إيللي" أحد .

وسألني إذا لم تكن "إيللي" قد اقترحت علي أن تحضر "جريتا" زواجنا وقلت : نعم ...

قال ذلك .. وسألني : ولكنك لم توافق على حضورها .. لماذا ؟

– لا أدري ... داخلني إحساس بأن تلك السيدة التي لم أرها قط توجه حياة "إيللي" وترتب كل شيء ... أحسست أن "إيللي" تعتمد عليها وتسمح لها بإدارة أمرها .. وأنها تستجيب لكل رغبة تقترحها "جريتا" ... أ ... أنا آسف يا مستر "أندروز" .. لم يكن يجدر بي أن أقول لك هذا .. ولكنني غضبت وقلت إنني لا أريد حضورها لأن الزفاف يخصنا وحدنا ولا أحب أن يشاركنا فيه أحد ... وأعتقد أنني كنت مخطئا عندما رفضت حضور "جريتا" ... ولكنني كنت أريد "إيللي" لي وحدي .

قال إنني كنت عاقلا ، وسألته بدوري :

- أنت أيضا ... ألا تحب "جريتا" لا تستطيع يا "مايكل" أن تستخدم هذا التعبير إذا لم تكن قد التقيت بعد بـ "جريتا" ؟

- أعني أنك تستطيع أن تكون فكرة عن شخص عندما تسمع عنه الشيء الكثير .. تستطيع أن تسمي ذلك غيرة .. ولكن لماذا لا تحب أنت "جريتا" ؟

- أنا أتمنى السعادة لـ "إيللي" .. ولكنني لا أحب أن تقع تحت السيطرة الكاملة لـ "جريتا" ... سألته عما إذا كانت "جريتا" سوف تتسبب في وقوع المشاكل بيني وبين زوجتي ، وقال إنه ليس من حقه أن يقول شيئا كهذا .. خيم الصمت برهة وكان هو البادئ بالحديث .. ولاحظت أنه يختار كلماته بعناية ... سألني عما إذا كانت "إيللي" قد اقترحت أن تقيم "جريتا" معنا ، وقلت إنني سوف أعارض ذلك قدر ما أستطيع ، فنحن متزوجان حديثا وأريد أن يكون البيت خاصا بنا وحدنا ، وأعتقد أن "جريتا" ربما حضرت لتقضي معنا بعض الوقت وهذا شيء طبيعي ... وسألته بدوري عما إذا كان يعتقد أن "جريتا" ترغب في الحضور إلى انجلترا والحياة مع "إيللي" وقال المستر "أندرو":

- لا أريد أن أثير مشاعرك ضدها .. وإن كان الموضوع يشغل بالي .. إنني أكره بعض تصرفاتها ولكن لدي إحساس بأن "إيللي" سوف تصر على حضورها لتعيش معكما .

قلت له ببطء : لا أعتقد أن "إيللي" سوف تصر على ذلك .. ولكن .. ألا تستطيع "إيللي" أن تمنحها معاشا للتخلص منها ؟

- لا أظن .. "جريتا" لا تزال شابة وهي سيدة جميلة .. وهي شديدة الجاذبية أيضا .....

- حسن .. ربما تزوجت .... ولكن لماذا لم تتزوج من قبل ؟

- أعتقد أن بعضهم عرض عليها الزواج ولكنها لم تعثر على الرجل المناسب... لقد بلغت "إيللي" الآن سن الرشد وقد ساعدتها "جريتا" كثيرا ولا[illegible] تكافئها "إيللي" على ذلك مكافأة طيبة .. قلت بابتهاج : حسن .. هذا يكون حلا مريحا .

- مرة أخرى أراك متفائلا .. دعنا نأمل أن توافق "جريتا" على قبول مثل هذه المنحة .

- ولماذا ترفضها ؟ تكون مجنونة لو رفضت المكافأة ...

- أتمنى أن أرى تأثير "جريتا" على "إيللي" يتوقف .. وأرجو أن تساعدني لتعجيل بذلك . سوف أفعل بالتأكيد ..

قال إنني ربما غيرت رأيي عندما أرى "جريتا" ، وقلت له إنني مصر على رأيي ، وقال : شكرا لك يا "مايكل" لا ستماعك إلي في صبر .

عرض علي بعد ذلك قبول دعوة للعشاء أنا و "إيللي" مساء الثلاثاء قائلا : إن "كورافان ستو فيسانت" و "فرانك بارتون" ربما كانا موجودين في لندن ، وقلت إنه لا مفر من مقابلتهما وطلب مني أن أتحمل "كورا" لأنه يتوقع أن تعاملني بحماقة ، وقال إن حضور "روبن" غير متوقع بعد .. لم أكن أعرف من يكون "روبن" هذا ... ربما كان أحد الأقارب .. ناديت على "إيللي" قائلا إن الاستجواب قد انتهى ، وجاءت على عجل ونقلت بصرها بين "لبنكوت" وبيني ثم اتجهت نحوه وقبلته قائلة :

- عمي العزيز "أندرو" ... أرى أنك كنت لطيفا مع "مايكل" ...

- لو لم أكن لطيفا مع زوجك لما استعنت بي في المستقبل .. ومع هذا فالحافظ لنفسي بحق إسداء النصح بين الحين والحين .... ما زلتما شابين ساذجين ... والآن أود أن أتحدث معك يا عزيزتي على انفراد ..

أدركت أنني لا أستمع إلى الحديث اعتقادا مني بأن الرجل يلعب على [illegible] ولكنني اكتشفت أنه يطلب من "إيللي" أن تمنح "جريتا" مكافأة ، وأن [illegible] على [illegible] أبيها : دخلا سنويا يمكن أن تسحبه وقتما تشاء، حتى [illegible] بذلك [illegible] في صفها ، ونادتني "إيللي" واشتركت معها في توديع العم "أندرو" ، وسمعنا طرقة على الباب ودخل خادم يحمل برقية .. كانت برقية من "جريتا" : إنها سوف تصل إلى لندن الليلة ... والتفتت "إيللي" نحونا فرأت [illegible] تنظر إليها في قلق :

الفصل السادس

خرجت في اليوم التالي للقيام ببعض المشتريات ، ووصلت إلى الفندق متأخرا عن الموعد الذي قدرته ، ورأيت "إيللي" جالسة في البهو تتحدث مع سيدة شقراء .. لا شك أنها "جريتا" .. لست بارعا في وصف الأشخاص ولكنني سأحاول أن أعطي صورة لـ"جريتا" ... لا شك أنها كما قالت "إيللي" شديدة الجمال ، شديدة الجاذبية كما قال المستر " لبنكوت " ... سيدة جذابة تستلفت أنظار الرجال ... تبدو أشبه بالسويديات أو الألمانيات ... عيناها زرقاوان لامعتان ... سيدة لافتة للنظر بحق !

اقتربت منهما بخطا مترددة .. لست من الأشخاص الذين يجيدون التمثيل .. قالت "إيللي" : أخيرا يا " مايك " .. هذه "جريتا" ..

وقلت : أنا سعيد جدا لمقابلتك في النهاية يا " جريتا " ..

وقالت " إيللي " بسعادة :

– كما تعرف جيدا يا "مايك" .. لولا "جريتا" لما كان باستطاعتنا أن نتزوج ....

وقلت في شيء من الفتور : ومع هذا فقد استطعنا أن ندبر بأنفسنا الشيء الكثير ... قالت "إيللي": إنني لا أتخيل ما كان سيحدث من جانب الأسرة لو لم تقم "جريتا" بدورها ، وسألتها عن موقف الأسرة عندما عرفت الأمر ، وقالت "جريتا" إنها لم تشأ أن تكتب لها حتى لا تفسد عليها شهر العسل ، قالت إنهم وجهوا إليها شتى الإهانات واتهموها بخيانة الأمانة ، ولكنها عرفت كيف تواجههم ؟ وسألتها "إيللي" عما تفعله الآن ؟ وقالت " جريتا " إنها تلقت عرضا للعمل كسكرتيرة في لندن ، وسألتها " إيللي " عما إذا كانت سعيدة ، وقالت :

– كيف لا أكون سعيدة وقد تلقيت منك ذلك الشيك الرائع ...

كانت لغتها الإنجليزية سليمة تماما ، غير مشوبة بلكنة أجنبية . قالت إنها اشترت أشياء كثيرة ، قالت "إيللي" إننا بدورنا اشترينا أشياء كثيرة خلال رحلتنا .. حقا .. صرفنا بغير حساب .. واشترينا لوحات من إيطاليا وباريس.. دفعنا أرقاما كانت تبدو من وجهة نظري خرافية .. لقد تفتحت أمامي

آفاق عالم جديد لم أكن أحلم به . قالت "جريتا" :

– أراكما تبدوان في غاية السعادة .... وردت عليها "إيللي" قائلة :

أنت لم تري بيتنا بعد .. سيكون رائعا .. سوف يكون نفس الشيء الذي حلمنا به .. أليس كذلك يا " مايك " ؟

قالت "جريتا" :لقد رأيته .. استأجرت سيارة بمجرد وصولي إلى انجلترا وذهبت لأراه ، وعندما سألتها "إيللي" عن رأيها فيه قالت :

حسن .. أحسست "إيللي" بصدمة شديدة ولكنني لم أشاركها في ذلك .. أدركت أن "جريتا" تمزح ... انفجرت "جريتا" ضاحكة وقالت :

– كان ينبغي أن تريا وجهيكما .. أنت بصفة خاصة يا "إيللي" ... إنه بيت رائع .. هذا المهندس عبقري .. لقد التقيت به هناك .. شخصية فريدة ولكنه مخيف .. سألتها كيف تراه مخيفا ؟ وقالت : لا أدري .. كأنما تنفذ نظراته إلى أعماق النفس .. وهو يبدو معتل الصحة .. وسألت عما إذا كان مصابا بالسل ؟ وقلت لها إنه ليس السل وإنما أعتقد أنه مرض يتعلق بالدم ..

سألت " جريتا " عن الموعد الذي ينتهي فيه بناء البيت ، وقالت "إيللي" إنه سيتم في القريب العاجل ، وقالت "جريتا" :

– المال يفعل كل شيء .. أنت لا تدركين كم هو رائع أن يمتلك الإنسان المال الذي لديك .....

ولكنني كنت أعرف معنى وجود المال بوفرة في يد الغني .. إنه يستطيع أن يشتري به أفضل الأشياء .. لا يقع بصره على شيء يعجبه ويقول : لا أستطيع أن أقتني هذا الشيء .... كنا نستعرض لوحة فرنسية من الفن التأثيري لفنان اسمه " سيزان " .. كان علي أن أحفظ هذا الاسم جيدا .. كان ثمن اللوحة خرافيا .. ولكن "إيللي" فضلت عليها لوحة صغيرة لمنظر طبيعي لم يتجاوز ثمنها ستة جنيهات .. وكانت فرحتها بها لا تقل عن إعجابها بلوحة " سيزان " .. وفي مرة أخرى ونحن في باريس طلبت مني شراء رغيف من الخبز وقطعة من الجبن المالح وتمتعت بتلك الوجبة أكثر من الوجبة التي تناولناها في الليلة السابقة في أحد المطاعم الكبيرة ودفعنا فيها عشرين جنيها .. كان الشيء المحرج الآن أن

زواجي من "إيللي" لم يكن مجرد لعب ولهو .. وإنما كان علي أن أتعلم أشياء كثيرة .. كيف أتعامل في المطاعم الراقية وكيف أدفع البقشيش المناسب ... وأن أتذكر أسماء الأطعمة والمشروبات ... وكان علي أن أتعلم تلك الأشياء بالملاحظة .. لم يكن باستطاعتي أن أسأل "إيللي" .. كذلك بالنسبة للملابس .. كانت "إيللي" تعاونني في الاختيار لأنها تفهم ذلك خيرا مني .. كنت أحس بالتأكيد أن مظهري لم يتحسن كثيرا ، وأن تصرفاتي لم تبلغ الحد المناسب .. ولكنني لم أكترث لذلك .سرعان ما ينتهي بناء البيت وننتقل لنعيش فيه بعيدا عن كل الناس وسوف تكون لنا مملكتنا الخاصة ثم جلست في مواجهة "جريتا" وأنا أتساءل : ترى كيف نفكر في بيتنا .. على أي حال إنه الشيء الذي تمنيته .. سوف يكون الشاطئ أمام البيت ملكا خاصا لنا ... كنت أريد .. أريد .. كنت أشعر بالأحاسيس التي تجيش في أعماق نفسي .. كنت أتمنى زوجة رائعة وبيتا جميلا ليس لأحد مثله .. كنت أريد لبيتي الرائع أن يمتلئ بالأشياء الجميلة .. وأن تكون كل تلك الأشياء ملكا لي .. قالت "إيللي" :

إنه يفكر في بيتنا .. نظرت إليها بمحبة .. سألتني :

– " مايك " .. هل تحب "جريتا" ؟ ألا تحبها ؟

وقلت باستسلام : أحبها بالتأكيد .

–لم أكن أتحمل أن تقول إنك لا تشعر بالميل نحوها ...

قلت معترضا : ما الذي يجعلك تفكرين في ذلك ؟

– لست متأكدة تماما .. إنني أفكر في الطريقة التي تتجنب بها النظر إليها حتى وأنت توجه إليها الحديث .....

– حسن ... أعتقد أن ذلك بسبب ... لأنني أشعر ببعض العصبية .

– من " جريتا " ؟

– نعم ... إنها توحي إلي بأفكار مخيفة ...

ضحكت "إيللي" وضحكت أنا أيضا ، وقلت إنني تعودت على رؤيتها ، وإنني أراها على درجة عالية من الكفاءة ولكنني أشعر إزاءها بالتضاؤل ، وقالت بارتياع :

–"مايك" ..... يجب أن تصبحا صديقين . إنها تحبك كثيرا ... لقد صارحتني بذلك .....

قلت : كان لابد لها ان تقول لك ذلك .

– أوه ... كلا .. إنها قليلة الكلام ولعلك لاحظت ذلك بنفسك وهي تتناول الغداء معنا .. إنها شديدة الصراحة وتقول ما يرضيها دون مواربة .. حقا ... كانت "جريتا " كذلك ؟ وقد قالت أثناء الغداء موجهة حديثها إلي بدرجة أكبر من "إيللي" :

– لعلك تعجب للطريقة التي ساعدت بها "إيللي" ... كانت ثائرة على الأوضاع المفروضة عليها ..... وقد شجعتها على التمرد ... اقترحت عليها أن تفكر في شراء أملاك في إنجلترا وعندما بلغت سن الرشد قلت لها إنها تستطيع أن تشتري لنفسها ما يروقها وتقول وداعا للكل في نيويورك ..

وقالت "إيللي" :

– لـ "جريتا" في بعض الأحيان أفكار رائعة ... أفكار لا يمكن أن تخطر ببالي قط ..

تذكرت الكلمات التي قالها المستر "لبنكوت"... قال إن "إيللي" واقعة تحت تأثير قوي لـ"جريتا"... كانت "إيللي" تريد التمرد على عائلتها وضربت "جريتا" على هذا الوتر ..

كانت "جريتا" في علاقتها مع "إيللي" تشبه أمي... نفس الطريقة التي ترمقني بها أمي وفي نظراتها الخوف والقلق..

عندما تذكرت المستر " لبنكوت " قلت لـ "إيللي" إنني دهشت لأن الرجل كان واقعيا في تقبله لزواجنا ، وقالت "جريتا":

– المستر "لبنكوت" .. إنه ثعلب هرم .

وقالت لها "إيللي" :

أنت تقولين ذلك دائما يا "جريتا" .... ولكنني أعتقد أنه صديق عزيز ومستقيم الغاية؛

وقالت "جريتا": حسن .. فكري كما تشائين .. أما أنا فلا أثق فيه بالمرة ...

قالت "إيللي" بدهشة : لا تثقين فيه ؟ هزت "جريتا" رأسها قائلة:

– أعرف أنه دعامة من دعائم الاحترام والأمانة .. إنه يتمتع بكل المزايا التي يتمتع بها الوصي والمحامي ...

ضحكت "إيللي" وقالت :

– هل تقصدين أنه اختلس ثروتي ؟ لا تكوني حمقاء يا "جريتا" ... هناك عشرات المحاسبين ورجال البنوك الذين يدققون في مراجعة الحسابات .

قالت "جريتا" : ومع هذا .. فهذا هو الطراز الذي يبتز الأموال .. وعندما تقع الواقعة يقول الإنسان .. لقد كان آخر رجل في العالم أتصور أن يفعل ذلك..

قالت "إيللي" إنها تصدق ذلك بالنسبة للعم "فرانك" ولا يدهشها أن يخون الأمانة فقد كانت له سوابق ، وقالت "جريتا" :

– مظهره يوحي بالغش والخداع .. ولكنني لا أعتقد قط أنه سيكون في وضع يجعل منه لصا كبيرا .

سألت "إيللي" :

– أهو شقيق أمك ؟ وقالت :

إنه زوج عمتي .. تركته عمتي وتزوجت رجلا آخر وماتت منذ ستة أو سبعة أعوام .. وظل العم "فرانك" مرتبطا بالعائلة .

تطوعت "جريتا" بتوضيح الأمر قائلة :

– هناك ثلاث ديدان تحوم حول الأسرة .. الأعمام الحقيقيون لـ "إيللي" قتلوا ... واحد في كوريا ، والآخر لقي مصرعه في حادث سيارة ... لهذا لم يتبق لها من أقاربها سوى زوجة أب فاسدة .. والعم "فرانك" الذي يحوم حول بيت العائلة ..وابن العم "روبن" الذي تسميه العم "روبن" .. و"أندرولبنكوت" و"ستانفوردلويد".

– سألت بدهشة : من يكون "ستانفورد لويد" ؟

قالت "جريتا" : واحد آخر من الأوصياء .. أليس كذلك يا "إيللي" هو الذي يقوم باستثمار المال وهي ليست بالمهمة الصعبة .. فالمال الكثير لدى واحدة مثل

"إيللي" يأتي بالأرباح الوفيرة دون أدنى جهد ... هذه هي الشلة التي تحيط بـ "إيللي" ... وليس لدي شك في أنك سوف تضطر لمقابلتهم في القريب العاجل.. سوف يأتون إلى هنا ليلقوا نظرة عليك ...

تململت وأنا أنظر إلى "إيللي" ... وقالت لي بمنتهى الرقة :

– لا تحمل هما يا "مايك" ... سوف يعودون من حيث أتوا .....

الفصل السابع

وصلوا ولكن أحدا منهم لم يمكث طويلا ... ليس في الزيارة الأولى .. جاءوا ليلقوا نظرة عليَّ ، وكان من الصعب عليَّ أن أفهمهم لأنهم كلهم أمريكيون ... لم يكونوا من الطراز الذي أعرفه .. كان بعضهم مرحا للغاية مثل العم "فرانك" ... مثل ما قالت "جريتا" . لم أكن أستطيع بحال أن أثق فيه .. عرفت أمثاله في انجلترا .. كان ضخما ميالا للنساء . اقترض مني نقودا مرة أو مرتين .. كانت مبالغ قليلة تكفي مصاريفه لمدة يوم أو يومين .. أعتقد أنه كان يختبرني ليرى ما إذا كان يسهل عليه الاقتراض مني .. أما "كورا" – زوجة أب "إيللي" – فقد اجتذبت انتباهي .. كانت في حوالي الأربعين من عمرها ... تصبغ شعرها بطريقة مقززة .. وكانت تعامل "إيللي" بمنتهى الرقة والعذوبة .. سمعتها تقول لها : انسي الخطابات التي كتبتها لك يا "إيللي" .. يجب أن تعترفي أنها كانت صدمة شديدة لي ... زواجك بهذه الطريقة .. في السر .. ولكنني أعرف أن "جريتا" هي التي دبرت ذلك .. وقالت لها "إيللي" :

– لا تلقي اللوم على "جريتا" ... لم أقصد تكديركم بحال من الأحوال .. كل ما في الأمر أنني ظننت ..

– لا بأس يا عزيزتي "إيللي" ... أصيب رجال الأعمال بالوجوم ... "ستانفورد لويد" و "أندرو لبنكوت" أعتقد أن الجميع سوف يوجهون لهما اللوم لأنهما لم يحيطاك بالرعاية الكافية ... فضلا عن أنهما لم يكونا يعرفان شيئا عن "مايك" .. لم يتوقعا أن يكون شخصية جذابة ... أنا نفسي لم أتوقع ذلك . رمقتني بابتسامة عذبة مزيفة .. ولكنني كنت واثقا من أنها تكرهني أشد الكراهية ... عاد "أندرو لبنكوت" إلى أمريكا ولا شك أنه حذرها . كانت "إيللي" تبيع بعض ممتلكاتها في أمريكا لأنها قررت البقاء في انجلترا ، ولكنها أزمعت إعطاء "كورا" مبلغا من المال لتعيش في المكان الذي يروقها . لم يتحدث أحد عن زوج "كورا" ..... واستنتجت أنه سافر إلى مكان ما من العالم ولم يكن وحده بالتأكيد ... وتوقعت حدوث طلاق آخر وألا تحصل "كورا" على نفقة من وراء

ذلك .. كانت امرأة مسرفة وفي حاجة إلى المعونة التي قدمتها لها "إيللي" ولاشك أن "لبنكوت" أفهمها أن "إيللي" سوف تقطع هذه المعونة إذا وجهت أي نقد لزوجها ...

لم يأت ابن العم "روبن" .. واكتفى بإرسال خطاب لطيف لـ "إيللي" متمنيا لها السعادة ولكنه أعرب عن شكوكه في قناعة "إيللي" بالحياة في إنجلترا وقال إن العم "روبن" سوف يرحب بعودتها إلى الولايات المتحدة ...

سألت "إيللي" :

هل أنت مغرمة بأي واحد منهم أم أنه ليس من حقي أن أوجه إليك هذا السؤال ؟

فكرت قليلا قبل أن تقول :

– لا ... لست مغرمة بأحد منهم .. ربما بدا ذلك غريبا ولكنهم في واقع الأمر ليسوا أقارب دم .... أحببت أبي وأعتقد أنه كان رجلا ضعيفا خيب آمال جدي بسبب عدم توفيقه في حياة رجال الأعمال .... كان يحب الذهاب إلى "فلوريدا" وصيد الأسماك .. تزوج بعد ذلك "كورا" ولم أكترث بها قط كما لم تكترث بي .. أما أمي فأنا لا أذكرها بالتأكيد ... أحببت العم "هنري" والعم "جو" لأنهما كانا أكثر مرحا من أبي .. كان جدي رجلا مريضا وكانت صدمة شديدة له عندما فقد أولاده الثلاثة ...

لم يكن جدي يحب "كورا" ولم يكن معنيا ببقية الأقارب البعيدين .. العم "روبن" على سبيل المثال ... لهذا اتخذ الإجراءات اللازمة لوضع ثروته تحت الوصاية وذهب معظمها إلى المتاحف والمستشفيات ولكنه ترك لـ "كورا" ولزوج ابنته العم "فرانك" مبالغ معقولة ... وسألت "إيللي" :

– ولكنه ترك معظم الثروة لك ؟

– نعم .. وقد سبب له ذلك بعض القلق ومن ثم فعل كل ما يستطيعه لأكون تحت رعاية شديدة ... بواسطة العم "أندرو" ومستر "ستانفورد لويد" ... المحامي ورجل البنوك ؟

– نعم ... أعتقد أنه فكر في أنني لا أستطيع إدارة ثروتي بطريقة جيدة ..

والشيء الغريب أنه سمح لي بالتصرف فيها عند بلوغي سن الرشد .. لم يشترط أن أتسلمها عند بلوغي سن الخامسة والعشرين كما يفعل الكثيرون .. أعتقد أنه فعل ذلك لأنني فتاة . قلت لها مفكرا: لا أعتقد أنه كان يحبني لو عرفني .

– نعم بصراحة أعتقد أنه كان سيصدم ... قلت بإشفاق : أيتها المسكينة " إيللي "!

– لماذا تقول ذلك ؟

قلت لك ذلك من قبل .. ألا تذكرين ؟

– نعم .. قلت :

الفتاة الغنية الصغيرة المسكينة ...

قلت لها في تردد :

– وقتها لم أقصد هذا المعنى .. لم أقصد أنك مسكينة لأنك غنية .. أنت محاطة بأناس كثيرين .. وكثيرون يطلبون أشياء منك ولكن أمرك لايعنيهم .....

أليس هذا صحيحا ؟ قالت " إيللي" بارتياب :

– أعتقد أن العم "أندرو" يهتم بي .... كان لطيفا متعاطفا معي دائما .. أما الآخرون .. فلا .. أنت على حق تماما يا " مايك" .. كانوا يطلبون أشياء فحسب....

– هل يأتون لاقتراض المال ومساعدتهم في الأزمات ؟

قالت " إيللي" بهدوء :

هذا الأمر طبيعي .. ولكنني انتهيت الآن منهم جميعا .. لقد جئت لأعيش في انجلترا .. ولن أراهم بعد ذلك كثيرا ...

كانت مخطئة في ذلك ولكنها لم تكن قد أدركت هذه الحقيقة بعد .. جاء "ستانفورد لويد" بعد ذلك يحمل مجموعة كبيرة من الوثائق والأوراق لتوقع "إيللي" عليها ..

وتحدث معها عن الاستثمارات والسندات والممتلكات التي تخصها .. كانت كل تلك الأمور كالألغاز بالنسبة لي ، لم أكن أستطيع نصحها أو الإشارة عليها

برأي . وما كنت أستطيع منع " ستانفورد " من غشها لو أنه حاول ذلك .. قلت لها بعد انصرافه :

– حسن .. هذا آخر واحد من المجموعة .....

– أنت لم تهتم بأي واحد آخر منهم .....

– أعتقد أن زوجة أبيك كلبة ذات وجهين .. آسف يا "إيللي" ، فربما لم يكن يحق لي أن أقول ذلك .

– ولم لا ؟ لا أعتقد أن الصواب جانبك في هذا الرأي .

– لاشك أنك كنت وحيدة يا "إيللي" .

– نعم ... كنت وحيدة ... عرفت بعض الفتيات في مثل سني ... ذهبت إلى مدرسة راقية ، ولكنني لم أشعر بالحرية قط .. لو تعرفت على صديقة سرعان ما يفرقون بيننا ويفرضون علي أخرى بدلا منها ، لو تصادف وعرفت صديقا فإنهم يحولون بيننا . ولم أتعرف في الواقع على إنسان أهتم به حتى جاءت "جريتا" وأصبح كل شيء مختلفا .. رأيت لأول مرة إنسانا يهتم بي حقا .. وكان ذلك شيئا رائعا قلت وأنا أدير وجهي تجاه النافذة : أريد ......

– ما الذي تريد ؟

– أوه .. لا أدري .. ربما كنت أحب ألا تكوني معتمدة تماما على "جريتا" ... إنه أمر سيء أن يعتمد الإنسان كلية على أي شخص .

سألتني بقلق : ألا تحبها يا " مايك " ؟

قلت محتجا : أحبها ... أحبها حقا .... ولكن يجب أن تدركي يا "إيللي" أنها إنسانة غريبة بالنسبة لي .. كما أنني لم أفهم من قبل مدى ارتباطكما ببعض .

– لا تكن غيورا يا "مايك" ... إنها الإنسان الوحيد الذي كان طيبا معي .. الوحيدة التي اهتمت بي قبل أن أقابلك .

– ولكننا تقابلنا وتزوجنا .... وسوف نعيش منذ الآن معا في سعادة .....

– إنني أحاول قدر المستطاع أن أرسم صورة واضحة للأشخاص الذين دخلوا حياتنا .

أو بتعبير آخر الذين دخلوا حياتي لأن "إيللي" كانت تعرفهم قبل ذلك .. وكانت

غلطتنا أننا تصورنا أنهم سيخرجون من حياة "إيللي" ولكنهم لم يفعلوا ... ولم يكن في نيتهم أن يفعلوا .... على أية حال لم نكن قد أدركنا تلك الحقيقة حينئذ..

بدأ الجانب الإنجليزي من حياتنا يظهر .. انتهى بناء بيتنا .. تلقينا برقية من " سانتونكس " طالبا منا الحضور في الغد ... ركبنا السيارة ووصلنا مع غروب الشمس ، وكان "سانتونكس" في انتظارنا أمام الباب .. عندما وقع بصري على البيت شعرت بشيء يقفز داخلي ويخترق جلدي ! إنه بيتي وقد حصلت عليه أخيرا ! ضممت "إيللي" إلى صدري بعنف وقال "سانتونكس":

– هل أعجبك ؟ قلت بابتهاج : إنه قمة ...

قال : نعم .. إنه أحسن بيت أقمته .. لقد كلفكم كثيرا ولكنه يستحق كل بنس أنفق عليه .

لقد تجاوزت الميزانية .. احمل زوجتك يا " مايك " لتجتاز العتبة .. هذا ما يفعله العروسان وهما يدخلان بيتهما الجديد ... احمر وجهي خجلا ولكنني حملت " إيللي " .... كانت خفيفة الوزن للغاية واجتزت العتبة وتعثرت قدماي وكدت أقع ، ورأيت وجه " سانتونكس " عابسا ، وقال :

– كن طيبا معها يا "مايك" ..اعتن بها ، لا تسمح لأي مكروه يقع لها .. إنها لا تستطيع العناية بنفسها وإن كانت تعتقد أنها تستطيع ....

وسألت " إيللي " :

– ولماذا يقع لي مكروه ؟

قال "سانتونكس" :

– لأنه عالم شرير مملوء بالأشرار .. ويوجد حولك يا صغيرتي بعض الأشرار .. لقد رأيت واحدا أو اثنين منهم .. رأيتهم هنا .. إنهم يجوسون حول المكان كالفئران ....

قالت "إيللي" :

– لن يضايقونا .. لقد عادوا جميعا إلى أمريكا .

وقال "سانتونكس" :

ولكنك لا تعرفين أن الرحلة بالطائرة لا تزيد على بضع ساعات .. وضع يديه على كتفيها النحيلتين .... كان يبدو مريضا بشكل مفزع .

وقال :

– لو كان الأمر بيدي لوقفت بجانبك لأرعاك .. لم يبق من العمر سوى القليل.. وعليك أن تدافعي عن نفسك بنفسك .

– انس تحذير الفجرية يا " سانتونكس " وتعال معنا لتطلعنا على كل ركن من البيت ....

طفنا بالبيت .. كانت بعض الغرف لا تزال خالية ولكن أغلب الأشياء التي اشتريناها من أثاث ولوحات وستائر كانت موجودة ... قالت "إيللي" إننا لم نطلق بعد اسما على البيت واقترحت تسميته "بالقلاع" وتساءلت عما إذا كنا نطلق عليه الاسم الشائع : "أرض الغجر" ، ورفضت ذلك بحزم ولكن "سانتونكس" قال : إن الاسم سوف يظل ملتصقا به .. جلسنا بعد ذلك في الشرفة نتأمل الشمس الغاربة ونفكر في اسم للبيت حتى هبط الظلام ودخلنا وأسدلنا الستائر على النوافذ .. كنا قد أحضرنا معنا بعض المأكولات في انتظار وصول مجموعة الخدم التي ستصل في الغد ، وقالت "إيللي":

– ربما كرهوا المكان لعزلته وأصروا على الذهاب .

وقال "سانتونكس" : سوف تضطرون في هذه الحالة إلى مضاعفة أجورهم لكي يقبلوا البقاء . وقالت " إيللي " ضاحكة :

– هل تعتقد أن كل إنسان يمكن شراؤه بالمال ، جلسنا حول المائدة نأكل في سعادة وابتهاج ... حتى "سانتونكس" كان يبدو قويا نشطا .. وحدث بعد ذلك ما حدث بصورة مفاجئة .. اخترقت قطعة من الحجر زجاج النافذة وسقطت فوق المائدة وحطمت كذلك كأسا وتناثرت قطع من الزجاج المحطم وخدشت خد "إيللي" .. أذهلتنا المفاجأة لحظة ثم قفزت مندفعا نحو النافذة وفتحتها وذهبت إلى الشرفة .. لم أر أحدا .. عدت إلى الحجرة وأخذت أجفف جرح "إيللي" بمنشفة من الورق وأنا أطمئنها إلى أن الجرح سطحي ، وقالت "إيللي" :

– لماذا يفعل أحدهم ذلك ؟

وقلت لها :

أولاد .. أنت تعرفين شقاوة الصبية ... أعتقد أننا محظوظون لأنهم اكتفوا بإلقاء حجر ولم يستخدموا بندقية رش .

– ولكن لماذا يفعلون ذلك ؟ لماذا ؟

قلت لها :لا أعرف .. مجرد شقاوة

وقفت "إيللي" فجأة وقالت : أنا خائفة .. أنا خائفة .

وقلت لها : سوف نبحث الأمر غدا ... نحن لا نعرف الكثير عن الجيران المحيطين بنا .

سألت " إيللي" بقلق : هل السبب أننا أغنياء وهم فقراء ؟

قال " سانتونكس " ببطء :

– كلا .. لا أظن ذلك .

وقالت " إيللي" :

– السبب أنهم يكرهوننا .. يكرهون "مايك" ويكرهونني .. ولكن لماذا ؟ ألأننا سعداء؟

هز " سانتونكس " رأسه ، وقالت " إيللي " إن أي ساكن لأرض الفجر سوف يقابل بالكراهية ،وإنهم ربما نجحوا في إيذائنا في المرة القادمة ... صببت لها كأسا من الشراب وطلبت منها أن تتجرعه وتنسى ما حدث ، ولكنها نظرت إلي بصلابة قائلة :

– يحاول بعضهم إبعادنا عن المكان ... عن البيت الذي بنيناه وأحببناه ..

وقلت لها : إننا لن نسمح لأحد بذلك ، وإنني سوف أسهر على حمايتها ..

التفتت نحو" سانتونكس " وسألته عما إذا كان قد التقى بأحد في فترة البناء وعما إذا كان بعضهم قد أخبره بشيء ، فقال "سانتونكس":

– ربما تخيل الإنسان بعض الأشياء .

– إذن فقد وقعت بالفعل بعض الحوادث ؟

– تقع دائما بعض الحوادث أثناء بناء البيوت ... ولكنها ليست بالأحداث الخطيرة .. يسقط عامل من فوق السلم .... أو يقع ثقل على قدمه .

–لا شيء أكثر من ذلك ؟ لا شيء عن قصد ؟

قال " سانتونكس" :

– كلا .. أقسم لك على ذلك .

التفتت " إيللي " نحوي قائلة :

– هل تتذكر تلك الغجرية يا"مايك"؟ لقد حذرتنا من المجيء إلى هنا ...

– إنها امرأة مجنونة .... ليست سليمة العقل .

قالت " إيللي" :

– لقد بنينا منزلنا فوق أرض الفجر .. فعلنا ما حذرتنا منه ...

ضربت " إيللي" الأرض بقدميها وهي تقول :

– لن أسمح لهم بإبعادنا .. سوف نكون سعداء هنا ...

وقلت لها مطمئنا :

– لن يبعدنا أحد عن هذا المكان ....

قلنا ذلك كأننا نتحدى القدر ....

الفصل الثامن

هكذا بدأت حياتنا في أرض الفجر ... لم نعثر على اسم آخر للبيت وقالت "إيللي" :

- سوف نسميه أرض الفجر ... كنوع من التحدي .. إنه ملكنا وليذهب تحذير الغجرية إلى الجحيم ... عادت "إيللي" لترحها مرة أخرى في اليوم التالي وأعددنا أنفسنا للاستقرار والتعرف على الجيران والوسط المحيط بنا .

مشيت مع "إيللي" إلى الكوخ الذي تعيش فيه الغجرية وتمنيت أن نراها وهي مشغولة بفلاحة حديقتها حتى تراها "إيللي" امرأة عادية ... ولكننا لم نجدها .. كان باب الكوخ مغلقا وسألت الجيران عما إذا كانت الغجرية ماتت ، وقالت جارتها :

- ربما رحلت .. إنها ترحل بين الحين والحين .. أنت تعرف طباع الغجر .. هل أنتما أصحاب البيت الذي أنشئ حديثا ؟

قلت : نعم انتقلنا إليه مساء الأمس .

وقالت السيدة : بيت رائع .. ذهبنا جميعا لنراه أثناء البناء .. اختلف شكل المكان بعد بناء منزل مكان تلك الأشجار الكثيبة .

التفتت السيدة نحو "إيللي" وسألتها عما إذا كانت أمريكية ؟

وقالت "إيللي" :

- نعم .. أو بمعنى أصح كنت أمريكية لأنني إنجليزية الآن بحكم زواجي من إنجليزي ..

- وهل قررت الاستقرار هنا ؟

- هذا ما أرجوه ....

أنت تعرفين أن المكان منعزل ولا يحب الناس الحياة في الأماكن المنعزلة .

وقالت "إيللي" :

- تعنين أرض الفجر ؟

- آه أراك تعرفين الاسم الشائع ....

قالت "إيللي" إنها سوف تحافظ على الاسم حتى تضمن وصول الخطابات ، وعندما قلت إنني أفضل ألا تصلنا رسائل قط ...

قالت : ولكنني أريد أن أسمع أخبار "جريتا" .

وقلت باستياء : دعك من "جريتا" .. هيا بنا نستكشف المكان ... ذهبنا إلى "كلجستون بيشوب" ووجدناها قرية لطيفة والناس عاديون والمحال لطيفة ولكن مجموعة الخدم التي استخدمناها لم تحب المكان ومن ثم قررنا استئجار سيارات تنقلهم في أيام إجازاتهم إلى أقرب مدينة على الشاطئ .. لم يتحمس الخدم للمكان ، وقلت لـ "إيللي" :

لايمكن أن يرجع قلقهم إلى الخوف من أن يكون البيت مسكونا لأنه حديث البناء ، وإنما يرجع السبب إلى كثرة منحنيات الطريق من خلال الأشجار الكثيفة حيث كانت تقف تلك السيدة الغجرية واعترضت طريقنا فجأة ، وقلت إنه من الأفضل أن نقطع تلك الأشجار ونقيم مكانها بعض الحدائق :أخذنا نضع الخطط للمستقبل ... وجاءت "جريتا" لتمكث معنا في عطلة نهاية الأسبوع وهنأتنا على حسن ترتيب الأثاث واللوحات واختيار الألوان ..... ثم استأذنت حتى لا تعكر علينا صفو شهر العسل قائلة إنها مضطرة للعودة إلى عملها .

وجدت "إيللي" متعة في مرافقتها لمشاهدة البيت ، واتضح لي مدى تعلق "إيللي" بها ، ولكنني كنت سعيدا عندما رأيت "جريتا" تعود إلى لندن ، لأن بقاءها في المنزل كان يثير أعصابي .

تقبلنا المجتمع المحلي بعد قضاء أسبوعين في المكان وتعرفنا على "الرب" جاء لزيارتنا بعد ظهر أحد الأيام . أعلن الخادم عن مقدم الميجور "فيليبوت" .. وبمجرد أن رأيته قلت لـ "إيللي" هامسا :

"الرب" وعندما سألتني عما أعنيه قلت : إن الأهالي يعاملونه على أنه السيد... كان رجلا مرحا في الستين من عمره ، يرتدي الملابس الريفية وله شارب خشن قصير .. اعتذر لعدم حضور زوجته معه لأنها مريضة .. جلس ومضى يتحدث حديثا غير جذاب في موضوعات متفرقة .. لم يوجه إلينا أسئلة مباشرة ولكنه سرعان ما أدار دفة الحديث نحو هواياته .. تحدث عن سباق

الخيل ثم عن فلاحة الحدائق وأنسب النباتات التي تصلح لتربة المكان ... قال إنه زار الولايات المتحدة مرتين .. واكتشف أن " إيللي " غير مهتمة بسباق الخيل وإنما تهوى الركوب . أخبرها أنها إذا كانت سوف تحتفظ بخيول للركوب فباستطاعتها تمهيد ممر خاص بين أشجار الصنوبر يؤدي إلى الأرض السبخة حيث تستطيع أن تطلق لجوادها العنا ن . . ثم تطرق الحديث إلى بيتنا والقصص التي تدور حول أرض الغجر ، وقال :

– أرى أنكما على علم بالاسم المحلي وبكل الخرافات التي يروجها الناس أيضا ...

قلت إنها مجرد شائعات تروج أغلبها مسز "لي" العجوز ... وقال " فيليبوت " :

– أوه .... العجوز المسكينة " إيستر " ... هل ضايقتكم ؟

سألته : هل هي مختلة العقل ؟

– ليس إلى الدرجة التي تتظاهر بها .. أنا أعتبر نفسي مسؤولا إلى حد ما .. تركتها تعيش في الكوخ رغم أنها تسبب أحيانا بعض المضايقات .

– قراءة البخت ؟

– كلا .. ليس ذلك تماما ... لماذا .. هل استطلعت لكما المستقبل ؟

قالت "إيللي" :

لا أدري ما إذا كنت تسمي ما حدث قراءة للمستقبل ... كان تحذيرا لنا حتى لا نأتي إلى هذا المكان ....

قال الميجور "فيليبوت " بدهشة :

– يبدو لي ذلك غريبا .. فقد اعتادت عند قراءة الطالع أن تقول كلمات معسولة .. مثل الزواج السعيد وإنجاب ستة أطفال والحصول على ثروة كبيرة .. اعتاد الغجر عندما كنت صبيا أن يقيموا معسكراتهم في هذا المكان ... أحببتهم رغم أن بعضهم كان يسرق .. أحست الأسرة أنها مدينة بعض الشيء للمسز "لي" ... فقد أنقذت حياة أخي عندما كان طفلا .. أخرجته من الترعة عندما سقط بين كتل الثلج التي بدأت تذوب .....

اصطدمت يدي بمنفضة السجائر وسقطت على الأرض حطاما وساعدني

الميجور في جمع قطع الزجاج المتناثرة ، وقالت "إيللي" :

– لا أعتقد أن المسز " لي " شريرة .. كنت حمقاء عندما شعرت بالخوف منها .

قال الميجور بدهشة مرة أخرى :

– خفت منها ؟ هل كان الأمر مفزعا إلى هذا الحد ؟

قلت بسرعة : لا عجب إذا كانت قد شعرت بالخوف .. كان الكلام تهديدا أكثر منه تحذيرا .

قال الميجور غير مصدق : تهديد !

– بدا لي الأمر كذلك .. ثم وقع لنا بعدذلك حادث في أول ليلة لوصولنا . أخبرته بقصة الحجر والنافذة المحطمة ، وقال إنه تحدث أشياء غريبة في بعض الأماكن ، والتفت نحو "إيللي" قائلا :

– أنا أسف لما حدث .. شيء مفزع أن يحدث شيء كذلك في أول ليلة ...

وقالت "إيللي":

– لقد تغلبت على الخوف الآن ولكن .. ولكن هناك شيء آخر حدث بعدذلك أخبرته به أيضا .. نزلنا إلى الحديقة ذات صباح وعثرنا على طائر ميت وقد اخترق جسده سكين به ورقة مكتوبة بخط رديء تقول : " غادروا هذا المكان قبل أن تنزل عليكم الكوارث ." .

بدا الغضب على وجه " فيليبوت " ثم قال :

– كان ينبغي أن تخطروا الشرطة بذلك .

قلت له إننا لم نشأ أن نفعل ذلك حتى لا نثير غضب الفاعل فيتمادى في عدوانه علينا .. وقال إن هذا العبث لابد أن يقف . فقد يعتبره البعض تسلية أو مزاحا ، ثم عاد يسأل :

– أليس من المحتمل أن يكون لأحدهم ضغينة عليكما أو على أحدكما لأسباب شخصية؟

قلت : لا .. فنحن غريبان عن المكان .

قال الميجور إنه سيبحث الأمر ووقف وهو يستعرض المكان بنظراته وقال :

– بيتكم هذا يروقني رغم أنني من المحافظين الذين يميلون إلى البيوت القديمة أحب المباني القديمة ولا تروقني المباني الحديثة التي تبدو مثل علب الكبريت ولكنني أحب هذا البيت فهو عادي وعصري ومضيء .. إذا نظرتم من النوافذ ترون أشياء ، مختلفة تماما عما رأيتم من قبل .. من الذي صمم هذا البيت أهو مهندس إنجليزي أم أجنبي ؟ حدثته عن " سانتونكس " وقال إنه قرأ عنه في إحدى المجلات ... وقال إنه يحب أن يراه ، وإن لم يكن هو شخصيا من الفنانين .. ثم وجه إلينا الدعوة لزيارته وتناول الغداء معه ومع زوجته .. حتى نرى بيته الذي أنشيء عام ١٧٢٠ ، وقلت له : هل كنتم تعيشون في المكان منذ ذلك الحين؟

قال إنهم كانوا يعيشون هنا منذ أيام الملكة " إليزابيث " ومرت بهم أيام حلوة وأخرى مرة .. وإنهم باعوا بعض الأرض في الأزمات ثم استردوها عندما تحسنت الأحوال . حيانا ثم انصرف ليركب سيارة عتيقة حال لونها ، وأدركت مع ذلك قيمته .. إنه السيد بحق في هذه المنطقة ولكننا اكتسبنا استحسانه .. لقد شعر بالميل نحو " إيللي " ، وأستطيع أن أقول إنه أحبني أيضا ..

كانت "إيللي" تجمع ما تبقى من الزجاج المكسور عندما عدت إلى غرفة الاستقبال ، وقالت إنها أسفة لتحطيم المنفضة وقلت إنني سأشتري غيرها ، وسألتني:

– ما الذي أفزعك يا " مايك " ؟ فكرت برهة ثم قلت :

– شيء قاله " فيليبوت " ذكرني بحادث وقع لي أثناء طفولتي .... كنت ألعب مع صديق لي فوق سطح بركة متجمدة ... لم يتحملنا الجليد وسقط صديقي في البركة وغرق قبل أن يتمكن أحد من انتشاله .

وقالت " إيللي " :

يا له من حادث فظيع ....

– نعم .. لم أتذكر ذلك الحادث حتى تكلم " فيليبوت " عن أخيه .. لبينا دعوة "فيليبوت " في الأسبوع التالي ... وصحبنا في جولة لمشاهدة البيت والصور المعلقة على الجدران ....

عرفت أنها صور لبعض أفراد الأسرة ، توقفت أمام صورة لسيدة جميلة ،

وقال " فيليبوت " باسما :

– لقد انتقيت أفضلها .. أثارت صاحبة الصورة في عهدها بعض المتاعب ... اتهمت بدس السم لزوجها .... ربما كان الاتهام باطلا لمجرد أنها أجنبية ... التقطها " جير ساف فيليبوت " أثناء إحدى رحلاته إلى الخارج .

كان بعض الجيران مدعوين معنا للغداء حتى يتم التعارف بيننا ... الدكتور "شو" رجل شيخ يبدو عليه التعب وانسحب قبل تناول الغداء .. القس الشاب وهو قوي وإنسان جاد ... وسيدة في منتصف العمر صوتها خشن .. وشابة سمراء طويلة جميلة تدعى " كلوديا هاردكاسل " ، عرفنا أنها تعشق ركوب الخيل وإن كانت إصابتها بالحساسية التي تتسبب لها في الحمى الخريفية تعوقها عن ممارسة هوايتها .. ولما كانت " إيللي " مصابة هي الأخرى بالحساسية وتهوى ركوب الخيل ، فقد ساد بينهما الوفاق .. وقالت "إيللي" لـ"كلوديا" إن الأطباء في أمريكا أعطوها كبسولات ناجحة وإنها سوف تهديها بعضها ، ورحبت " كلوديا " بذلك ..

كنت أجلس بجانب مسز "فيليبوت" .. وهي سيدة طويلة تفرط في الحديث عن صحتها والأطعمة التي تسبب لها المرض . وبعد حديث طويل عن مرضها ومغامراتها مع الأطباء سألتني عن عملي ، وتحاشيت الإجابة ، وكذلك حاولت المسز "كورجي" نفس الشيء ولكنني حولت دفة الحديث إلى موضوع نقص الأطباء البيطريين ...

خرجنا بعد ذلك إلى الحديقة واقتربت مني " كلوديا هاردكاسل " وقالت لي في صوت هامس : إنها سمعت عني من أخيها ، وعندما أعربت لها عن دهشتي قالت : إنه المهندس الذي بنى بيتكم ، وقلت في دهشة :

– هل تعنين أن "سانتونكس" أخوك ؟

– هو نصف أخ .. أنا لا أعرفه جيدا ولم نتقابل إلا نادرا ....

سألتها عما إذا كانت قد رأت بيتنا ، وقالت إنها لم تره بعد أن تم البناء ، وأخبرتها بضرورة المجيء لرؤيته وقالت : لن أحبه .. أنا لا أحب البيوت الحديثة... طراز "كوين آن" هو المفضل لدي .. وقالت : إنها سوف تدعو

"إيللي" للانضمام إلى نادي الجولف وإنهما سوف يركبان الخيل معا ، وأخبرتني أن "إيللي" تنوي شراء حصان أو حصانين مما أشعرني أنهما أصبحتا صديقتين .

بينما كان "فيليبوت" يطلعني على اصطبلاته قال عن " كلوديا" :

– إنها فارسة ممتازة ولكنها دمرت حياتها .. تزوجت أمريكيا اسمه " لويد " .. وهو شيخ يكبرها كثيرا .. ولم تستطع الاستمرار معه وافترقا بعد قليل من زواجهما واسترجعت اسمها قبل الزواج ..... لا أظن أنها ستتزوج مرة أخرى... للأسف أصبحت عدوة للرجال ..

بينما كنت أقود السيارة في طريق عودتنا إلى البيت .

قالت "إيللي " إنها سعيدة بجيرانها ، وسبقتني إلى داخل البيت بينما كنت أضع السيارة في الجراج .. وبينما أنا أمشي نحو البيت سمعتها تعزف على جيتارها الأسباني وتغني بصوت دافئ إحدى الأغنيات المفضلة لدي .. كانت الأغنية تقول :

ولد الإنسان ليعيش مع الأفراح والأحزان .
وعندما ندرك هذه الحقيقة جيدا ..
خلال رحلة الحياة .... تمر الرحلة بسلام ...
في كل ليلة وفي كل صباح .
يولد البعض مع الشقاء .....
في كل ليلة وفي كل صباح .
يولد البعض في أحضان السعادة والهناءة .
يولد البعض ليعيشوا في رخاء .
ويولد البعض لليل ليس له آخر .

رفعت "إيللي" عينيها لتراني وسألتني :

– لماذا تنظر إلي هكذا يا "مايك"؟ كأنما تحبني ..

– إنني أحبك ولا شك .. هل كنت ترين في نظراتي غير ذلك ؟

– ولكن فيم كنت تفكر ؟ أجبتُ ببطء وفي صدق :

– كنت أفكر فيك كما رأيتك لأول مرة ... تقفين بجوار شجرة صنوبر داكنة... نعم .... كنت أتذكر اللحظة التي رأيت فيها "إيللي" للمرة الأولى .. المفاجأة والانزعاج ...

ابتسمت "إيللي" برقة وعادت تغني بصوتها العذب :

في كل ليلة وفي كل صباح ،
يولد البعض في أحضان السعادة والهناءة ،
يولد البعض في أحضان السعادة والهناءة ،
ويولد البعض لليل ليس له آخر .

لا يدرك الإنسان اللحظات المهمة في حياته إلا بعد فوات الأوان .. كان يوم عودتنا بعد الغداء مع " فيليبوت " ونحن في قمة السعادة واحدا من تلك اللحظات ولكنني لم أدرك ذلك وقتها ... ولا حتى فيما بعد ... طلبت من "إيللي" أن تغني لي أغنية ، الفراشة ، وغنت لي " إيللي" :

أيتها الفراشة الصغيرة وأنت تلعبين في الصيف ،
امتدت يدي دون قصد لتطردك بعيدا .....
ألست فراشة مثلك ؟ أم أنت رجل مثلي ؟
لأنني أرقص وأشرب وأغني
حتى تمتد إلي يد تلمس جناحي
إذا كانت الأفكار هي الحياة ..
والقوة والأنفاس والتفكير في الموت ..
سعيد أنا إذن .....
سواء مت أو كتبت لي الحياة ......
أواه يا "إيللي" .."إيللي" .

الفصل التاسع

من المثير للدهشة في هذه الحياة أن الأمور لا تجري على النحو الذي نتوقعه.. انتقلنا إلى بيتنا وابتعدنا عن الجميع وفق خطتي التي رسمتها .. إلا أن المشاكل تزاحمت قادمة عبر المحيط ومن جهات أخرى .

على رأسها كانت زوجة أبيها التي أرسلت خطابات وبرقيات تطلب من "إيللي" أن تذهب لمقابلة وكلاء الأملاك قائلة إنها أعجبت بمنزلنا وتريد شراء بيت لها في انجلترا ... لتقضي في بريطانيا شهرين من كل عام ، ووصلت بالفعل طالبة معاينة بيوت في المناطق المجاورة .. واختارت بيتا في النهاية على بعد أربعة عشرون كيلو مترا من منزلنا .. لم نكن نريدها هنا ولكننا لم نستطع أن نقول لها ذلك . كان ذلك آخر شيء تريده "إيللي" .. كنت واثقا من ذلك ....

ووصلت بضع برقيات .. يبدو أن العم " فرانك " تورط في مشكلة ... عملية احتيال يتطلب إخراجه منها قدرا كبيرا من المال ... وتبودلت البرقيات بين "إيللي" والمستر "لبنكوت" .. ثم اتضح وجود بعض المشاكل بين "ستانفورد لويد" و"لبنكوت" .. كان هناك خلاف حول الاستثمارات الخاصة بـ "إيللي" .. لم أكن أتصور أن أقارب "إيللي" في أمريكا يمكن أن يستقلوا الطائرة ثم يعودوا بعد أربع وعشرين ساعة ... فعل " ستانفورد لويد " ذلك ثم أعقبه " أندرو لبنكوت " ..

كان على "إيللي" أن تسافر إلى لندن لتقابلهم .. وأثناء تلك المشاكل اكتشفنا أنا و "إيللي" حماقتنا .. لم نكن قد استكشفنا كل أملاكنا بعد .. لم نكن نعرف سوى المنطقة المحيطة بالبيت وحسب .. سلكنا ذات يوم ممرا بين الأشجار الكثيفة وعثرنا في نهايته على مبنى أبيض أشبه بالمعبد .. كان في حالة جيدة .. أعدنا طلاءه وزودناه ببعض قطع الأثاث والأكواب وزجاجات الشراب .. اقترحت "إيللي" تطهير الممر حتى يسهل علينا الصعود إلى المكان ، واعترضت على ذلك حتى لا يعرف المكان أحد سوانا .. ورأت "إيللي" تلك فكرة رومانسية ، وقلت لها:

- يجب أن نبقي هذا المكان سرا بالنسبة "لكورا " ... ووافقتني "إيللي" على ذلك

بينما كنا نهبط من ذلك المكان المرتفع بعد انصراف " كورا" زلت قدم "إيللي" والتوت ركبتها .. وقال الدكتور "شو" إنها تحتاج إلى أسبوع حتى تعود الركبة إلى حالتها الطبيعية ... عندئذ أرسلت "إيللي" تستدعي "جريتا" ولم أستطع الاعتراض ... وصلت "جريتا" وكان وصولها نعمة كبرى بالنسبة لـ "إيللي" .. تولت "جريتا" إدارة البيت بكفاءة .. وفي نفس الوقت أنذرنا الخدم بعدم رغبتهم في الاستمرار في العمل لأن المكان - على حد قولهم - موحش ، ولكنني أعتقد أن "كورا" هي التي ضايقتهم ... نشرت "جريتا" إعلانا في الصحف وتقدم لنا على الفور خادمان آخران ... رعت "جريتا" ركبة "إيللي" وأخذت تسليها وتحضر لها كل ما تريده من كتب وفواكه وأشياء أخرى لا أعرف شيئا عنها وكان من الواضح أنهما في غاية السعادة معا .، وبقيت "جريتا" ولم ترحل بعد ذلك وقالت لي "إيللي" :

- أعتقد أنك لن تعارض في بقاء "جريتا" بعض الوقت .. وقلت مرغما : إنني لن أعترض ، وقالت إن هناك أمورا نسائية كثيرة تتطلب وجودها .. ويوما بعد يوم لاحظت أن "جريتا" تدس أنفها في كل شيء وتصدر الأوامر ...

وتظاهرت برضائي عن وجود "جريتا" معنا . ولكن حدث ذات يوم بينما كانت "إيللي" راقدة رافعة قدمها في غرفة الجلوس ، وكنت واقفا مع "جريتا " في الشرفة ، أن نشب شجار فجأة بيني وبين " جريتا " ، وفقدت أعصابي واتهمتها بأنها فتاة مسترجلة وأنها تدس أنفها في كل شيء ، وردت علي "جريتا" بحدة ، وارتفع صوتانا إلى الدرجة التي جعلت "إيللي" تقوم وتسرع إلينا ... وقفت تنقل نظراتها بيننا ، وقلت لها :

- أنا آسف يا عزيزتي .. أنا شديد الأسف ... عدت إلى الداخل وساعدت "إيللي" في الجلوس على الأريكة ، وقالت " إيللي":

لم أكن أتصور أنك تكره وجود " جريتا" إلى هذا الحد ...

لا أتذكر السبب الذي أثار ذلك الشجار ، وحاولت أن أهدئ "إيللي" واعتذرت بأن أعصابي ثائرة ، وقلت لها في النهاية إنني أحب " جريتا" ، وإن ما حدث

كان بسبب ثورة أعصابي وقلقي ، وانتهى الأمر بأن توسلت لـ "جريتا" كي تبقى معنا ....

أعتقد أن خادمنا الجديد وزوجته سمعا الشجار .. لقد تعودت الصراخ عندما أفقد أعصابي ، ولكنني أعترف أنني بالغت في ثورة الغضب في هذه المرة .. كانت "جريتا" شديدة القلق حول صحة "إيللي" ، وأخبرتني أنها ليست قوية ، وقلت لها :

– ليس ثمة ما يستوجب القلق فقد كانت صحتها جيدة دائما ......

– كلا .. ليست صحتها على ما يرام .. إنها رقيقة للغاية . عندما جاء الدكتور "شو" ليفحص ركبة "إيللي" ، قال إن الحالة طبية ولا تحتاج إلى أكثر من رباط لبعض الوقت وأنها تستطيع المشي ، وسألته عما إذا كانت صحتها جيدة وعما إذا كانت رقيقة بالفعل ، قال بحدة :

–من الذي قال ذلك ؟ صحتها على ما يرام وأي إنسان معرض لما تعرضت له "إيللي" .

– لا أقصد ركبتها ... أتساءل عما إذا كانت ضعيفة القلب أو اعتراها شيء من هذا القبيل .

– لا تتخيل أشياء لا وجود لها أيها الشاب .... من الذي أدخل تلك الفكرة في رأسك ؟ قلت له إن المس " أندرسون " هي التي قالت ذلك . وقال :

– آه ، ما الذي تعرف المس "أندرسون" عن الطب ؟ تأكد أن زوجتك بصحة جيدة . ويقولون هنا : إنها واسعة الثراء ... يتصور بعض الناس أن كل الأمريكيين أغنياء .....

وقلت له : إنها غنية بالفعل ، وقال الدكتور " شو " :

– حسن تذكر أن الأغنياء يدفعون الثمن بطرق مختلفة يعطيهم الأطباء بعض المساحيق أو الأقراص أو المهدئات التي تسيء إلى صحتهم أكثر مما تفيد .. لذا تجد صحة القرويات أفضل ...

قلت له : إنها تتناول بالفعل بعض الكبسولات ، وعرض علي الطبيب أن يفحصها إذا شئت .. ووجه حديثه لـ "جريتا" قائلا:

– طلب مني المستر "روجرز" أن أفحص المسز "روجرز" فحصا عاما .. ولم أكتشف فيها أعراضا مرضية .... أعتقد أن خروجها في الهواء الطلق مفيد .. ما الأدوية التي تتناولها ؟

– تأخذ بعض الأقراص عندما تحس بالتعب .... كما تأخذ أقراصا أخرى تساعدها على النوم .

ذهبت "جريتا" مع الطبيب لتطلعه على الأقراص التي تتناولها "إيللي" ، وقالت "إيللي" باسمة :

– أنا لا آخذ كل هذه الأقراص يادكتور "شو" آخذ أقراص الحساسية فقط..

ألقى الطبيب نظرة على الأقراص وقرر أنها غير ضارة ، ثم فحص الأقراص المنومة وسأل "إيللي" عما إذا كانت تعاني الأرق ، وقالت إنها لم تتناول هذه الأقراص منذ مجيئها إلى الريف ، وأكد لها الطبيب أن صحتها جيدة بصفة عامة وأن الأقراص خفيفة ، يتناولها الكثيرون ونصحها بترك الأقراص المنومة ، وقالت "إيللي" إن "جريتا" توليها عناية أكثر مما ينبغي ، وأن "جريتا" نفسها لاتأخذ أي نوع من الأدوية .. كانت علاقات "إيللي" قد توثقت الآن مع جيراننا .. وكانت "كلوديا هارد كاسل" تتردد على "إيللي" كثيراً وتخرجان معا في رحلات لركوب الخيل .. لم أكن من هواة الركوب فقد تعاملت طوال حياتي مع الميكانيكا والسيارات وفكرت في تعلم ركوب الخيل عندما أذهب إلى لندن .. لم أشأ أن أتعلم هنا حتى لايسخر الناس مني .. أما "إيللي" فقد كانت مغرمة بالركوب وتشجعها "جريتا" على ذلك .. ذهبت "إيللي" مع "كلوديا" إلى أحد المزادات واشترت لنفسها جواداً اسمه "المنتصر" وطلبت منها أن تكون على حذر عندما تخرج وحدها وضحكت مني قائلة : إنها تركب الخيل منذ كانت في الثالثة من عمرها ...

كانت "إيللي" تخرج للركوب مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع ، وتنتهز "جريتا" هذه الفرصة وتخرج في رحلة بالسيارة إلى "ماركت شادويل" للمشتريات ، وبينما كنا على مائدة الغداء ذات يوم ، قالت "جريتا" إنها التقت

بغجرية عجوز اعترضت السيارة التي كانت تدهمها ، مما اضطرها إلى التوقف ، وهددتها العجوز بقبضة يدها قائلة :- هذه أرض الغجر وليس من حقكم البناء عليها أو تربية الخيول فيها .. ارحلوا جميعاً قبل أن أصب عليكم لعنتي وفي هذه الحالة لن تروا خيرا ..

استمعت "إيللي" إليها في قلق ولم تقل شيئاً ، وعندما ذهبنا إلى حجرتنا قالت لي : إنها لاتصدق "جريتا" ، وقلت إنها ربما كانت تبالغ بعض الشيء ، وسألت "إيللي" عما إذا كانت لم تر الغجرية أثناء ركوبها الجواد ، وقالت إنها لمحتها أكثر من مرة واقفة وراء الأشجار ولكنها لم تعترض سبيلها .. ولكن "إيللي" جاءت ذات يوم وهي ترتجف وأخبرتني أن الغجرية العجوز استوقفتها وهي تهددها بقبضة يدها وقالت :

– ليست هذه أرضكم .. ولن تكون لكم أبداً .. لقد حذرتكم مرتين قبل ذلك ولن أحذركم مرة أخرى .. لن يطول الوقت الآن .. إنه الموت الذي أراه .. إنه رابض خلف كتفك اليسرى .. إنه يتربص بك .. الرجل اليمنى لحصانك بيضاء وهذا فأل سيء .. إنه الموت الذي أراه .. وأرى بيتك يتحول إلى أنقاض !

قلت لها غاضبا : يجب وضع حد لذلك ..

اتجهت رأسا إلى القرية .. إلى كوخ المسز "لي" وعندما وجدت الكوخ خالياً ذهبت إلى مركز الشرطة .. كنت أعرف "السيرجنت كين" استمع الشرطي لقصتي ثم قال :

– يؤسفني أن تتعرضوا لمثل هذه المتاعب .. إنها سيدة عجوز متعبة أحياناً .. ولكنها لم تتسبب لنا أي مشاكل من قبل .. سوف أتحدث معها وأطلب منها الابتعاد عنكم . سكت الشرطي قليلاً ثم قال متردداً :

– هل يوجد شخص هنا يا مستر "روجرز" يحمل في قلبه حقدا عليك أو على زوجتك؟

– لا .. ولكن لماذا؟

– جرى كثير من المال بين يدي الغجرية العجوز في الفترة الأخيرة لا أحد يعرف مصدر هذا المال ..

سألته عما يقصده . فقال إنه يعتقد أن شخصاً يدفع لها النقود لكي تبعدنا من المكان .. وقد سبق لواحد من القرويين أن أعطاها بعض النقود لكي تفزع واحدا من الجيران ليبتعد .. كانت تفعل معه نفس الشيء .. تحذره وتهدده وتحذره من العين الشريرة ومثل هذه الأمور .. أنت تعرف أن القرويين يصدقون هذه الخرافات .. وقد يدهشك أن تعرف عدد القرى في الريف الإنجليزي التي يوجد فيها مثل هذا اللون من الساحرات .. حذرنا العجوز ولم تكرر ذلك بقدر علمي .. ولكن المعروف أنها تحب المال .. وأن هذا الطراز يمكن أن يفعل أي شيء في سبيل النقود ..

لم أستطع قبول تلك الفكرة وقلت "للسيرجنت" إننا غرباء عن المنطقة ولم نمكث وقتا يسمح باكتساب الأعداء ..

عدت إلى البيت قلقاً مهموماً ، وبينما كنت أقترب من الشرفة سمعت "إيللي" تعزف على الجيتار ، ولمحت شبحاً طويلاً بجوارها ظننته في البداية الغجرية . ولكنني اكتشفت أنه "سانتونكس" . سألته من أين جاء . وجذبني من يدي بعيداً من "إيللي" وسألني لماذا سمحت لها بالمجيء .. ظننت أنه يقصد "إيللي" ولكنه قال : السيدة الأخرى .. ما اسمها ؟ "جريتا" ..

قلت له إن "إيللي" سقطت والتوت ركبتها وإنها كانت في حاجة إلى "جريتا" ، وقال باستياء : إن "جريتا" كانت تخطط للمجيء وقد نجحت ولن تبرح المكان بعد ذلك . لأنها قضت وقتا طويلا مع "إيللي" وتعرف كيف تسوسها ..

كان هذا نفس ما قاله "لبنكوت" .. وقد تبين لي بعد ذلك أنه كان على حق ..

سألني "سانتونكس" : – هل تريدها في هذا المكان يا "مايك"؟

– إنها صديقة قديمة لـ "إيللي" ولا أستطيع أن أطردها ..

– أعتقد أنك لاتستطيع أن تفعل شيئاً .. هل تستطيع ؟

رمقني بنظرة صارمة .. كانت نظرة غريبة .. كان "سانتونكس" رجلاً غريباً لاتستطيع أن تعرف المعنى المستتر وراء كلماته . ثم قال : إنني لا أعرف الطريق التي أسلكها ، وعندما قلت له إنني أعرف طريقي جيداً ، قال :

– هل تعرفه حقا ؟ إنني أشك في ذلك .. أنا أخشى عليك من "جريتا" لأنها

أقوى منك .

قلت متبرماً : ليست المسألة مسألة قوة ..

– أليست كذلك ؟ إنها الطراز الأقوى .. قلت إنك لاتريدها هنا وقد جاءت .. لقد راقبتها وهي تجلس مع "إيللي" .. سمعتهما تتحدثان في انسجام .. من أنت يا "مايك" ؟ غريب .. ألست الدخيل يا "مايك" ؟

– أنت مجنون .. ماذا تقصد بالدخيل ؟ ألست زوج "إيللي" ؟

– أنت مختل العقل .. ما الفارق ؟

تنهد وهز كتفيه ، ثم قال لي باستياء :– إنني لا أستطيع أن أفهمك يا "مايك"..

– يخيل إلي أحيانا أنك لاتعرف شيئاً عن نفسك أو عن الآخرين .. لقد شيدت لكما البيت الذي كنتما تحلمان به لتعيشا فيه وحدكما .. تخلص من تلك السيدة يا "مايك" قبل فوات الأوان ..

قلت : إنني لا أستطيع أن أغضب "إيللي" ، وقال : إن "جريتا" جعلتنا في الوضع الذي تريده .. قلت : إنني تشاجرت معها شجاراً عنيفاً ، ولكن إبعادها عن البيت ليس بالأمر السهل .. قال في شرود :– كأنما اللعنة التي انصبت على هذا المكان حقيقة ..

أنا أعرف بعض الأشياء عن الشر .. ألست أنا نفسي شريراً ؟

كنت كذلك دائماً .. لهذا أعرف الشر عندما يقترب مني رغم أنني لا أعرف مكانه على وجه التحديد .. أريد تطهير هذا البيت من الشر .. هل تفهم هذا ؟

ثم تغير الأمر كلية .. هدأ فجأة وقال لي :

– دعنا نتوقف عن الكلام في هذا العبث .. ولنذهب لنر "إيللي" ..

كان "سانتونكس" لطيفاً بشا بعد ذلك .. تحدث مع "إيللي" حديثاً رقيقاً ، وجامل "جريتا" بطريقة أثارت دهشتي .. هذا الرجل خطر .. إنه يستطيع أن يستحوذ على قلوب النساء بسهولة .. كانت "جريتا" تنظر إليه بافتتان .. وفجأة عاد إلى اكتئابه .. قال : إنه خرج من المستشفى مؤخراً بعد تغيير دمه مرة أخرى .. ربما للمرة الأخيرة .. وحاولت "إيللي" أن تخفف عنه قائلة إن مكروهاً

لن يحدث له .. وقال في شرود :– سمعتك الآن وأنت تغنين :

ولد الإنسان ليعيش مع الأفراح والأحزان .

وعندما ندرك هذه الحقيقة جيدا ..

خلال رحلة الحياة .. تمر الرحلة بسلام

إنني أجتاز الرحلة بسلام لأنني أعرف أين أنا .. أما أنت يا "إيللي" :

في كل ليلة وفي كل صباح

يولد البعض في أحضان السعادة والهناءة .

هذه أنت يا "إيللي" ..

تمنت له أن ينعم بالأمان وسألها بدوره : ألا تشعرين أنت بالأمان ؟ وقالت "إيللي" :

– لا أحب أن يهددني أو يصب اللعنة علي أحد ..

فهم "سانتونكس" أنها تقصد الغجرية ونصحها بنسيانها والعناية بصحتها وتمنى لها السعادة ولنفسه الراحة في أيامه الأخيرة ، وسألته "جريتا" عن أمنيته بالنسبة لها وقال : بالنسبة لك ؟ ربما النجاح !

سافر "سانتونكس" في الصباح الباكر ، وقالت "إيللي" إنه إنسان غريب .. وأنه يعرف الناس أكثر من معرفتهم لأنفسهم ثم قالت : وهو يكرههم في بعض الأحيان بسبب ذلك .. وفي أحيان أخرى يشعر نحوهم بالأسف ..

ترددت قليلاً ثم قالت : ولكنه لايشعر نحوي بالأسف ..

وسألتها بدهشة : ولماذا يشعر نحوك بالأسف ؟

وقالت : أوه – لأنه – ثم صمتت .

الفصل العاشر

بينما كنت أمشي بخطا سريعة بعد ظهر اليوم التالي في أكثر الأماكن إظلاماً من الغابة ، رأيت شبح سيدة طويلة حسبتها في أول الأمر الغجرية ، ولكنني اكتشفت عند اقترابي منها أنها أمي .. قلت لها :– يا إلهي .. لقد أفزعتني .. هل أتيت لترينا ..؟ لقد أرسلت لك أكثر من دعوة .. ولم أكن قد أرسلت لها في الواقع سوى دعوة واحدة وبلهجة تجعلها ترفض بكل إصرار .. فلم أكن أريد حضورها إلى هنا .. قالت أمي !: نها جاءت أخيراً لتراني وتطمئن علي وترى البيت الكبير الذي بنيته ، وقلت لها :

– هل ترينه شيئاً كبيراً بالنسبة لأمثالي ؟ وقالت بمرارة : لم أقل ذلك .. ولكنه ليس الشيء الذي ولدت من أجله ..

قلت لها: إن الإنسان لايصل إلى شيء إذا استمع إلى نصائحها وقالت : إن الطموح الذي يتجاوز المعقول ينقلب إلى مرارة ، وقلت باستياء :

– أرجوك بحق السماء ، ألا تتعبي كالغربان .. تعالي لتري زوجتي العظيمة .. قالت : زوجتك ؟ لقد رأيتها بالفعل .. ألم تخبرك بذلك ؟ ألم تقل لك : إنها جاءت لتراني ؟ عندما رأت دهشتي أخبرتني أنها فوجئت بها تطرق الباب ذات يوم لتقول لها : إنها زوجتي ، وإنها جاءت لتعرف أم "مايك" .. وقالت لها أمي إنها تراهن على أن "مايك" لم يكن يريد مجيئها .. لأنها غنية ونحن فقراء ولاشك أنه يشعر بالخجل .. وأضافت أمي :

إنه لايخجل مني .. إنه يخشاني لأنني أعرف عنه الشيء الكثير .. وقلت لأمي محنقاً :– كان ينبغي أن تخبرني "إيللي" أنها ذهبت لتراك .. لا أرى سبباً لكي تبقي ذلك سراً ..

غضبت .. غضبت غضباً شديداً .. لم أكن أتصور أن تخفي "إيللي" عني أسراراً كهذه .. وقالت أمي :– ربما كانت خائفة لما فعلته ؟ ولكنني لا أرى موجباً لخوفها منك يابني .. طلبت منها أن تأتي لترى البيت .. لا أعرف ما إذا كانت أحبت بيتنا .. لا أظن أنها أحبته .. تطلعت إلى الحجرات ورفعت حاجبيها

ثم ذهبت إلى الشرفة حيث كانت "جريتا" تجلس مع "إيللي" ..

كانتا قد وصلتا لتوهما من الخارج وكانت "جريتا" ترتدي عباءة قرمزية اللون من الصوف تغطي كتفيها .. تفحصتهما بنظراتها وظلت واقفة برهة في مكانها كالتمثال .. قفزت "إيللي" من مكانها واتجهت نحوها قائلة :

– أوه .. إنها المسز "روجرز" يا "جريتا" .. جاءت أمه لترى البيت وترانا .. أليس البيت لطيفاً ؟ هذه صديقتي "جريتا أندرسون" .

احتوت يد أمي بين كفيها ، ونظرت إليها أمي ثم تطلعت إلى "جريتا" من وراء كتفها بنظرات صارمة وهي تقول :– آه .. إنني أرى ..

وسألت "إيللي" : ماذا ترين ؟

قالت أمي : – كنت أتساءل كيف تبدو الأمور هنا .. تطلعت أمي حولها ثم أردفت تقول :– نعم .. بيت رائع .. ستائر جميلة – والكراسي واللوحات رائعة ..

طلبت "إيللي" من "جريتا" أن تعد الشاي ، ونظرت "جريتا" إلى أمي وهي خارجة نظرة تكشف عن الخوف .. وجلست أمي وسألتها "إيللي" عما إذا كانت ستبقى معنا بعض الوقت وقالت أمي : إنها ستنصرف بعد نصف الساعة لكي تلحق القطار ، وأنها جاءت لمجرد الاطمئنان علينا .. وقالت بسرعة .. ربما لرغبتها في الانصراف قبل عودة "جريتا" :– والآن لاتنزعجي يا صغيرتي .. لقد أخبرته بأنك جئت لزيارتي .. وقالت "إيللي" بحزم : أنا آسفة لأنني لم أخبرك يا "مايك" فكرت في أنه من الأفضل أن أخفي عنك ذلك .

وقالت أمي : لقد جاءت بدافع من طيبة قلبها .. إنها فتاة طيبة تلك التي تزوجتها يا "مايك" .. وهي حسناء أيضاً .. رائعة الجمال .. أنا آسفة وقالت "إيللي" بدهشة : آسفة ؟

– آسفة للأشياء التي فكرت فيها .. ولكن هذا حال كل الأمهات .. تداخلهن الشكوك في زوجات أبنائهن .. ولكنني بعد الذي رأيته الآن أقول إنك محظوظ يا "مايك" .. وقلت لأمي باسماً – أنت تعرفين أن لي ذوقاً ممتازاً .. وقالت أمي وهي تتأمل الستائر:

– كنت تتطلع دائماً إلى الأشياء الثمينة ..ثم التفتت نحو "إيللي" قائلة لها : سوف تساعدينه بين الحين والحين على توفير بعض النقود .. وسوف يؤدي ذلك إلى تحسين سلوكه ..

وقلت : إنني أرفض أن يتحسن سلوكي .. ميزة أن يختار الإنسان لنفسه زوجة ترى كل ما يفعله زوجها سليماً .. أليس كذلك يا "إيللي" ؟

كان وجه "إيللي" يطفح بالبشر والسعادة ، ضحكت وقالت :

– أنت تتعالى يا "مايك" .. إنه الغرور ..

عادت "جريتا" تحمل أقداح الشاي .. وساد التوتر الجو من جديد .. وفشلت كل جهود "إيللي" في إقناع أمي بالبقاء ، وخرجت "إيللي" معي لنصحب أمي حتى الباب ، وسألتها أمي عن الاسم الذي اخترناه للبيت ، وأخبرتها أننا أسميناه أرض الغجر ، وقالت أمي :– آه .. لأن الغجر يقيمون حولكم هنا ؟

سألتها :

– كيف عرفت ذلك ؟

– لقد رأيت واحدة منهن ورمقتني بنظرات غريبة ، قلت لها إن السيدة طيبة ولكن عقلها مختل بعض الشيء ..

وقالت : لماذا تقول ذلك ؟ هل هي حاقدة عليك ؟

قالت "إيللي" : كل ما في الأمر أنها تتخيل أننا استولينا على أرضها أو على شيء من هذا القبيل .. وقالت أمي : أعتقد أنها تريد بعض النقود .. هكذا شأن الغجر .. وقالت "إيللي" : ألا تحبين الغجر ؟

– إنهم لصوص .. لايعملون بصفة منتظمة ويضعون أيديهم على ما يملكه الآخرون ..

وقالت "إيللي" في تردد : أوه .. أ .. لم نعد نشعر بالقلق الآن .

سألت أمي عن السيدة التي تعيش معنا ، وأخبرتها "إيللي" أن "جريتا" كانت معها طوال السنوات الثلاثة السابقة على زواجها ، ولولا معاونة "جريتا" لها لما شعرت بطعم السعادة .. وسألت أمي عما إذا كانت في زيارة عابرة لنا ، وقالت "إيللي" مراوغة :– إنها تعيش معنا الآن لأن ركبتي التوت وكنت في حاجة إلى

من يرعاني .. ولكنني الآن بخير ..

– يحتاج المتزوجون حديثاً إلى أن يعيشوا وحدهم في البداية .

وقفنا نتابع أمي بنظراتنا وهي تبتعد ، وقالت "إيللي" إن لأمي شخصية قوية .. كنت غاضبا .. كنت شديد الغضب من "إيللي" لأنها زارت أمي دون أن تخبرني ولكنها عندما استدارت لتواجهني بابتسامتها الوديعة لم أملك سوى أن أقول لها : يا لك من إنسانة مخادعة صغيرة ..

وقالت "إيللي" .. حسن ، يجب أن أكون كذلك في بعض الأحيان ..

قلت : مثلما حدث في إحدى مسرحيات "شكسبير" التي شاهدتها .. حيث خدعت الفتاة أباها ..

قالت "إيللي" ساهمة : على قدر ما أعلم لم أخدع أبي .. ربما كنت فعلت ذلك فيما بعد .

– لا أظن أنه كان يرضى عن زواجك مني ..

– نعم .. ما كان ليرضى .. كان رجلاً محافظاً .. لهذا أعتقد أنني كنت أفعل مثلما فعلت "ديدمونة" وأخدع أبي لأهرب معك .

سألتها بفضول :

– لماذا كنت حريصة يا "إيللي" على مقابلة أمي ؟

– أحسست أنها فعلت من أجلك كل شيء لتوفر لك التعليم والحياة الطيبة ومن ثم فكرت أنه من الضعة نكران الجميل أن أتجاهلها ولا أسعى لرؤيتها ..

– كان سيصبح خطئي ، لا خطأك أنت ..

– نعم .. أفهم أنك لم تكن تريدني أن أراها ..

– هل تعتقدين أنني أشعر بمركب النقص من ناحية أمي ؟

– ليس هذا صحيحاً يا "إيللي" أؤكد لك أن الأمر ليس كذلك ..

قالت "إيللي" بعد التفكير : نعم .. أعرف ذلك الآن .. السبب أنك كنت لاتريد أن تتدخل في حياتنا كلها .. ولكن اتضح لي أنها ليست من ذلك الطراز أعني أنها كانت تريد لك أن تزاول أعمالاً معينة ..

– هذا صحيح .. كانت تريد لي وظيفة دائمة .. الاستقرار ..

قالت "إيللي" : كانت نصيحة طيبة بحق .. ولكنها لم تكن النصيحة التي تليق بك يا "مايك" .. لست من الطراز الذي يحب الاستقرار .. أنت تريد أن تمشي لترى الأشياء وتفعل ما يروقك .. أن تقف على قمة العالم .. وقلت لها : أريد أن أبقى معك في هذا البيت ..

– ربما لفترة قصيرة .. وأعتقد أنك سوف تتوق إلى العودة إلى هنا دائماً .. ونفس الشيء بالنسبة لي .. أعتقد أننا سوف نأتي إلى هنا كل عام وسوف نكون سعداء هنا أكثر من أي مكان آخر .. ولكنك ترغب في السفر إلى شتى الأماكن .. أنت تحب الأسفار ورؤية الدنيا وشراء الأشياء.. وربما تضع خططاً جديدة لإقامة حديقة هنا . ربما نذهب لمشاهدة الحدائق الإيطالية واليابانية .. مختلف أشكال الحدائق . وقلت لها : أنت تجعلين الحياة مثيرة يا "إيللي" .. إنني آسف لغضبي ..

– أنا لست خائفة منك يا "مايك" .. أمك لاتحب "جريتا" .

– كثير من الناس لايحبون "جريتا" .

– بما فيهم أنت ؟

– وبعد يا "إيللي" .. أنت ترددين هذا القول كثيراً وهو غير صحيح .. كنت أغار منها قليلاً في البداية ولكن العلاقة بيننا الآن طيبة ..

– أعتقد أن المستر "لبنكوت" أيضاً لايحبها .. يعتقد أن لها تأثيراً شديداً عليّ وهذا أمر طبيعي لأن لديها شخصية متسلطة .. ويجب أن يكون معي شخص أثق فيه وأعتمد عليه ..

شخص يقف في صفي ..

دخلنا المنزل وكل منا يتأبط ذراع الآخر .. لم تكن "جريتا" في المنزل .. قال الخدم إنها خرجت للنزهة ..

الآن بعد أن عرفت أمي كل شيء عن زواجنا ورأت "إيللي" .. بدأت أفعل كل ما كنت أريده لبعض الوقت .. أرسلت لأمي شيكاً بمبلغ محترم وطلبت منها أن تنتقل إلى مسكن أفضل وأن تشتري الأثاث الذي تريده .. كان لدي شك في أنها سوف تقبل الشيك .. لم يكن مالاً كسبته بعرق جبيني ولا أستطيع أن

أدعي ذلك .. وكما توقعت أعادت إلي الشيك ومعه رسالة قصيرة تقول فيها : "لاشأن لي بهذه النقود .. لن تتغير أبداً ، قد تأكدت من ذلك الآن .. فلتساعدك السماء".

قلت لـ "إيللي" غاضباً وأنا أطلعها على الرسالة :

هل رأيت النوع الذي تنتمي إليه أمي ؟ تزوجت فتاة غنية وأعيش على أموال زوجتي .. وأمي لا توافق على ذلك ..

وقالت "إيللي" : لا تنزعج يا "مايك" .. هذه هي الطريقة التي يفكر بها بعض الناس ، ولكنها سوف تتغلب على هذا الشعور . إنها تحبك حباً شديداً يا "مايك" .. وقلت لها باستياء : لماذا تفكر إذن في تغييري ؟ إنني أنا .. ألست شخصاً بالغاً ؟ وقالت "إيللي" برقة : نعم .. وأنا أحبك ..

أرادت "إيللي" تغيير دفة الحديث وسألتني سؤالاً أقلقني ..

قالت : ما رأيك في الخادم الجديد ؟

قلت : لا بأس به .. ولكن لماذا تسألين ؟

– كنت أتساءل هل هو رجل أمن ؟

قلت بدهشة : رجل أمن ؟ ماذا تقصدين ؟

– مخبر سري .. فكرت في أن العم "أندرو" ربما دبر ذلك ..

– ولماذا يفعل ؟

– أ .. حسن .. ربما خوفاً من الاختطاف . لعلك تعرف أننا في الولايات المتحدة نستخدم حراساً ، وخاصة في الريف ..

كانت هذه واحدة أخرى من المساوئ التي اكتشفتها بالنسبة للأغنياء الذين يملكون المال .. وسألتها :

– هل تشترك معه زوجته في هذه المهمة ؟

– أرجح ذلك ، رغم أنها طاهية ماهرة .. أعتقد أن العم "أندرو" أو ربما "ستانفورد لويد" قد دفع مبلغاً من المال للخدم السابقين ، لكي يتركوا العمل حتى يرسل إلينا هذين الخادمين .

قلت بدهشة : دون علمك ؟

- بالتأكيد . لأنهم يعرفون أنني كنت سأعارض بشدة .. على أي حال ربما كنت متوهمة .. قال بعد ذلك بصوت حالم .

ربما تداخل الإنسان مثل هذه الأحاسيس عندما يكون معتاداً على وجود أناس من هذا الطراز حوله ..

وقلت لها بوحشية : أيتها الفتاة الصغيرة الغنية البائسة ..

لم تغضب "إيللي" وقالت : أعتقد أن هذه الكلمات تصفني وصفاً جيداً ..

وقلت لها : إنني أتعلم منك أشياء كثيرة طول الوقت يا "إيللي" ..

الفصل الحادي عشر

استيقظت من النوم وأنا أشعر بسعادة غامرة .. كان الجو رائعاً .. اليوم هو السابع عشر من سبتمبر أيلول .. كانت لدي خطط كثيرة لهذا اليوم .. كنت على موعد مع الميجور "فيليبوت" لحضور مزاد يقام في بيت ريفي على بعد أربعة وعشرين كيلو مترا ..

اطلعت على كتالوج المزاد واخترت في ذهني قطعتين ..

اعتادت "إيللي" أن تخرج كل صباح تقريباً لتركب جوادها مع "كلوديا" أحياناً ووحدها في أحيان أخرى .. سألت "جريتا" عن برنامجها هذا اليوم فقالت : إنها سوف تقابل "كلوديا هارد كاسل" في ماركت "شادويل" لشراء بعض الباذنجان .. وقلت لـ "إيللي" :

- إذا كانت "جريتا" ذاهبة اليوم إلى لندن .. فلماذا لاتقابليننا في مطعم "جورج" في "بارتنجتون" .. الطعام هناك جيد .. هكذا قال لي "فيليبوت" واقترح علي أن نلتقي بنا هناك في الساعة الواحدة ..

وافقت "إيللي" وخرجت لتبدأ جولتها .. كانت مولعة بالركوب ، وكانت معتادة على صعود ممر إلى الربوة العالية ثم تطلق العنان لجوادها ليهبط في الطريق الذي يؤدي إلى البيت .. تركت السيارة الصغيرة لـ "إيللي" وركبت السيارة الكرايزلر .. ووصلت إلى المزاد قبيل الموعد بقليل لأجلس بجوار "فيليبوت" على المقعد الذي حجزه لي ..

أخبرني "فيليبوت" أن عدداً من كبار التجار يحضرون المزاد ، لأن بعض قطع الأثاث المعروضة ثمينة .. وأشار نحو بعض اللوحات لـ "رومني" و"رينولدز" وسألني عما إذا كنت مهتماً بها ، وأخبرته أنني جئت لشراء مكتب نسائي قديم ومقعد مناسب له لأقدمهما هدية لـ "إيللي" في عيد ميلادها بعد أسبوع .. وأنني تعمدت حضور المزاد وحدي حتى تكون الهدية مفاجأة لها .. حصلت على القطعتين بثمن مرتفع ، وقال لي "فيليبوت" :

- حسن .. أرى أنك استمتعت اليوم ..

سألته عما إذا كان قد اشترى شيئاً من المزاد ، فقال :إن الأسعار تجاوزت قدرته .. تطلع إلى ساعته وقال : من الأفضل لنا أن ننصرف ، وسألني عن "إيللي" وقلت إنها ستقابلنا في المطعم ، وسأل عن المس "أندرسون" وقلت له :

– ذهبت "جريتا" إلى لندن مع المس "هاردكاسل" على ما أعتقد ..

– أوه .. نعم .. قالت "كلوديا" ذلك بالأمس ..

التفت "فيليبوت" نحوي وقال باسما : – أرى وجهك متضرجاً بالحمرة اليوم من فرط السعادة .. وقلت بابتهاج : ذلك لأنني اشتريت المكتب لـ "إيللي" ..

– حسن .. كن على حذر يا "مايك" .. الإفراط في الشعور بالسعادة يكون نذير سوء ..

وقلت بدهشة : أهذه من المعتقدات الاسكتلندية ؟

فقال : إن الفرح الشديد يسبق وقوع الكارثة .. حاول أن تخفف من شعورك بالسعادة .. قلت إنني لا أومن بهذه الخرافات ، وقال :

– ألا تؤمن كذلك بنبوءات الغجر ؟

قلت إننا لم نسمع شيئاً في الفترة الأخيرة عن الغجرية .. وقال "فيليبوت" إنها ربما ابتعدت عن المكان .. وصلنا بعد ذلك إلى المطعم فوجدناه مكتظاً بالرواد ، وكان أغلبهم ممن حضروا المزاد .. ورأيت وجهاً أو وجهين خيل إليّ أنني أعرفهما ، وحاولت أن أتذكر من هما وأين التقيت بهما دون طائل ..

سألتني صاحبة المطعم عما إذا كنت سأجلس على المائدة المحجوزة لنا وقلت لها :

– سوف تحضر زوجتي بين لحظة وأخرى ..

قلت لـ "فيليبوت" إن صاحبة المطعم قلقة لكثرة الزبائن اليوم ، وإنه من الأفضل أن نجلس ونتناول الغداء ، وقال "فيليبوت" ضاحكا :

– هكذا تفعل بنا النساء دائماً .. يسرهن أن يبقى الرجال طويلاً في انتظارهن .. حسن يا "مايك" .. هيا بنا فأنا جائع بالفعل ..

استمر الحديث بيننا ونحن نأكل ، وقلت : إن "إيللي" ربما نسيت الموعد ، فقد تعودت الاعتماد على "جريتا" التي تساعدها في الالتزام بالمواعيد وترتب لها

الأمور ، وقال – هل تعتمد زوجتك كثيرا على المس "أندرسون" ؟ وقلت له : نعم.. خيم الصمت بعض الوقت ، وقلت فجأة :

– هل يعقل أن تكون "إيللي" قد نسيت الموعد ؟

نصحني الميجور "فيليبوت" بالاتصال بالمنزل تليفونيا ، ورنت علي المسز "كارسون" الطاهية وأخبرتني أن المسز "روجرز" لم تعد إلى المنزل منذ خروجها للركوب في الصباح .. أعطيتها رقم تليفون المطعم وطلبت منها الاتصال بي بمجرد عودة "إيللي" إلى المنزل .. وعدت إلى "فيليبوت" الذي عرف من تعبيرات وجهي أن شيئاً ما قد حدث وقلت له إن "إيللي" خرجت للركوب منذ الصباح وهي تعود في العادة بعد نصف الساعة أو الساعة ولكنها لم تعد حتى الآن وقال لي برقة :

– لاتقلق يابني قبل أن يستوجب الموقف القلق .. أنت تعلم أن بيتك يقع في مكان منعزل .. ربما يكون الحصان قد عرج واضطرت زوجتك إلى المشي حتى البيت .. وقلت بانزعاج : لو أنها فكرت في تغيير خططها لكان عليها الاتصال بي هنا .. وقال "فيليبوت" :– من الأفضل أن ننصرف الآن لنرى ما باستطاعتنا أن نفعله ..

عندما وصلنا إلى موقف السيارات لمحت سيارة أخرى تغادر الموقف .. كان فيها الرجل الذي شاهدته في المطعم وعجزت عن تذكر شخصيته .. وخيل إلي فجأة أنني أعرف الرجل..

"ستانفورد لويد" أو رجل يشبهه .. هل جاء لمقابلتنا ؟ كانت معه في السيارة سيدة تشبه "كلوديا هاردكاسل" ؟ ولكنها قطعاً ليست "كلوديا" لأن "كلوديا" ذهبت إلى لندن مع "جريتا".

لاحظت أثناء قيادة السيارة أن "فيليبوت" يتفرس في وجهي وقلت له :

– حسن .. لقد حذرتني من الإفراط في مشاعر السرور هذا الصباح ..

– لاتفكر بعد في وقوع أي مكروه .. ربما تكون قد سقطت عن الجواد والتوت ركبتها أو وقع لها حادث صغير .. إنها فارسة ماهرة .. ولا أستطيع أن أتخيل وقوع حادث لها .. وقلت بشرود :

– تقع الحوادث في أي وقت .. قدت السيارة بسرعة ووصلنا إلى المكان المحيط بالبيت وتوقفنا لنسأل رجلاً يضرب الأرض بفأسه وقال لنا :

– شاهدت منذ أكثر من ساعتين حصاناً دون راكب .. فكرت في الإمساك به ولكنه جمح وابتعد عني ..

عدنا إلى المنزل ولم نسمع جديداً ، وأرسلنا رجلاً للبحث في منطقة الأشجار عن "إيللي" ، واتصل الميجور "فيليبوت" بمنزله وكلف واحداً من رجاله بالخروج للبحث عن "إيللي" .. لم نعثر على شيء في البداية .. وعندما سلكنا ممراً يؤدي إلى بعض الطرق المتشعبة عثرنا عليها مكومة على الأرض والحصان يقف بجوارها .. كان وجهها الأبيض الصغير يحدق في السماء ، وقلت بفزع وأنا أدير وجهي إلى الناحية الأخرى :

– أ .. كلا .. كلا .. لا أستطيع ثم انحنى "فيليبوت" فوقها ثم وقف في الحال وقال :

– من الأفضل أن تتصل بالطبيب .. ولكنني أعتقد أنه لافائدة يا "مايك" ..

قلت بفزع : هل تعني أنها ماتت ؟

– نعم .. لاداعي لأن أزعم لك غير ذلك ..

وقلت باضطراب : يا إلهي ! لا أستطيع أن أصدق !

أخرج من جيبه زجاجة صغيرة وفتح السدادة وطلب مني أن أشرب جرعة كبيرة .. شربت ثم قلت له :– شكراً لك ..

وصل الدكتور في سيارة لاندروفر قديمة واتجه نحو"إيللي" رأساً ليفحصها ، وعاد إلينا قائلاً :– ماتت منذ ثلاث أو أربع ساعات .. كيف وقع الحادث ؟ أخبرته كيف خرجت للركوب بعد الفطور كعادتها ، وقال إنه شاهدها قبل ذلك أثناء الركوب ويعرف أنها فارسة ممتازة ؟ وقال إن الحصان ربما فزع وأسقطها عن ظهره ، وقال الميجور "فيليبوت" إن الحصان هادئ ، وسأل "شو" عما إذا كانت "إيللي" مصابة بكسور ، وقال الطبيب إن الكشف الظاهري لم يفصح عن وجود كسور ولكنها ربما أصيبت بنزيف داخلي أو ماتت بسبب صدمة عصبية .. وقلت معترضا : ولكن الإنسان لايموت بالصدمة ..

قال الطبيب : مات بعض الناس قبل ذلك بسبب صدمة عصبية .. خاصة إذا كانت ضعيفة القلب .. وقلت إنني سمعتهم يقولون في أمريكا إنها كانت مصابة بضعف القلب .. أو بنوع من الضعف على الأقل ..

وقال الطبيب إنه لم يكتشف أي ضعف في القلب عندما فحصها قبل ذلك .. وقال إننا سنعرف الحقيقة في جلسة التحقيق .. نظر إلي الطبيب بعطف وقال:

– عد إلى البيت واذهب إلى السرير .. أنت الذي تعاني الصدمة ..

تجمع حولنا بعض المارة ليستطلعوا الأمر ، وقال عامل كان يقطع الصخور على جانب الممر :

– كان ينبغي أن أرى لو أن حادثاً وقع ..

سأله الطبيب عما إذا كان قد رأى السيدة تسقط عن ظهر الجواد ؟ وقال العامل :

– كلا .. كلا .. رأيتها تركب مصعدة في الممر .. سمعت وقع حوافر الحصان وهو ينطلق بسرعة بعد ذلك ، ولم أفكر في أن حادثاً ما قد وقع .. رفعت بصري فوجدت الحصان فوق الربوة وحده وظننت أن السيدة تركته .. كان الحصان يتجه إلى الاتجاه العكسي ..

ألم تر السيدة راقدة على الأرض ؟

– نعم .. رأيت الحصان لأنه كان على مرمى البصر أمامي ..

وقالت سيدة : ربما تكون الغجرية قد أفزعتها ..

وقلت للسيدة بانفعال : أي غجرية ؟ متى ؟

وقالت السيدة : منذ أربع ساعات .. حوالي العاشرة إلا الربع .. رأيت الغجرية إنها الوحيدة في المنطقة التي تلبس عباءة حمراء .. كانت تسير بين الأشجار وسمعت بعضهم يقول : إن الغجرية قالت للأمريكية الشابة كلاماً شديداً .. كانت تهددها وتطلب منها ترك المكان .. وقلت بمرارة : الغجرية .. أرض الغجر .. ليتني لم آت إلى هذا المكان أبداً ..

الفصل الثاني عشر

من الصعب علي أن أتذكر ما حدث بعد ذلك وما حدث قبل ذلك واضح في ذهني.. كل ما في الأمر أنني لم أكن أعرف من أين أبدأ ... ولكن من الآن فصاعداً أحس كأنما سكين قسمني إلى نصفين .. أما ما مر بي منذ موت "إيللي" فإنه يبدو وكأنه شيء لم أكن معداً له .. لم يحدث شيء لي وإنما تقاطرت الأحداث حولي .. كان الجميع شديدي الرقة معي .. يبدو أن هذا هو الشيء الذي أتذكره جيداً .. كنت أسير كالتائه لا أدري ماذا أفعل .. أذكر أن حيوية "جريتا" ظهرت في هذه الفترة .. كانت لديها قوة خارقة لمواجهة مثل هذا الموقف العصيب .. القدرة الفائقة على العناية بأدق التفاصيل التي لم يكن باستطاعتي القيام بها .. أول شيء أذكره - بعد أن نقلوا جثة "إيللي" وعدت إلى البيت .. بيتنا - أن دكتور "شو" عندما جاء ليتحدث معي .. إنه كان هادئا لطيفاً معي .. اكتفى بشرح الأمور بوضوح ورقة ..

الترتيبات .. أذكر استخدامه لهذه الكلمة البغيضة .. الترتيبات التي لا تخطر ببال الإنسان قبل أن تقع الأحداث .. متعهد دفن الموتى والإعداد للجنازة ودخول الخدم الحجرات لإسدال الستائر .. لماذا تسدل الستائر ؟ لأن "إيللي" ماتت ؟ لهذا أذكر أنني كنت ممتنا للدكتور "شو" الذي تعرض لهذه الأمور برقة واقتدار ، مثل التحقيق الذي لابد أن يجرى في مثل هذه الأحوال أذكر أنه كان يتحدث ببطء شديد لكي أتأكد من متابعتي لما يقول .. لم أكن أعرف شيئا عن شكل هذا التحقيق .. فلم أذهب في حياتي إلى جلسة تحقيق .. كان قاضي التحقيق رجلاً ضئيل الجسم ثرثارا .. طلب مني أن أتحدث بالتفصيل عن آخر وقت رأيت فيه "إيللي" على مائدة الفطور قبل خروجها للركوب كالمعتاد .. والترتيبات التي أعددناها للقاء بعد ذلك على الغداء .. وقلت له إن كل شيء سار بشكل طبيعي وأنها كانت في أتم صحة ..

أدلى دكتور "شو" بشهادته .. تحدث بهدوء وقال إنه لم يكتشف جروحاً خطيرة . مجرد كدمات كتلك التي تحدث في حالة السقوط عن الجواد وأنه

يرجح أنها لم تتحرك من المكان الذي وقعت فيه .. وأضاف أنه يعتقد أن الوفاة حدثت في الحال وأن عدم وجود جروح خطيرة يجعله يرجح أن الوفاة حدثت نتيجة هبوط في القلب بسبب صدمة .. وعلى قدر ما فهمت من المصطلحات الطبية التي استخدمها الطبيب أن "إيللي" ماتت بسهولة نتيجة عدم القدرة على التنفس .. "اسفسكيا" من نوع ما .. كانت أعضاؤها سليمة ومحتويات معدتها طبيعية ..

أكدت "جريتا" التي استدعيت أيضاً لأداء الشهادة أن "إيللي" كانت تعاني منذ ثلاثة أعوام مرضاً في القلب ، وأنها سمعت عرضا من بعض أقاربها يحذرونها من بذل جهد كبير ، ولكنها لم تسمع شيئا محدداً أكثر من ذلك ..

وجاء دور العامل الشيخ الذي كان موجودا وقت وقوع الحادث .. قال إنه رأى السيدة تمر أمامه على مسافة ستة وأربعين مترا ورغم أنه لم يتحدث معها من قبل . إلا أنه عرفها من حصانها المميز برجله البيضاء ، وقال إن الحصان معروف بهدوئه .. قال إن عدد المارة بالمكان قليل ولم ير في ذلك الصباح سوى شخص أو شخصين .. كان أحدهما ماشياً والآخر يركب دراجة ، ولكنهما كانا على مسافة بعيدة بحيث لم يتعرف على شخصيتيهما .. قال إنه رأى قبل وصول السيدة راكبة جوادها المسز "لي" العجوز .. كانت تسير في الممر متجهة نحوه ثم استدارت نحو الغابة ..

سأل القاضي لماذا لم تحضر المسز "لي" وعرف أنها استدعيت للشهادة ، أو قيل له إنها تركت القرية منذ بضعة أيام ولا أحد يعرف مكانها ، ولم تترك عنوانا لأنها تعودت على الذهاب والعودة دون أن تخطر أحدا بتحركاتها .. وقال شخص أو اثنان إنها في الواقع غادرت القرية قبل يوم وقوع الحادث .. سأل القاضي العامل الشيخ :

- هل أنت واثق أن التي رأيتها هي المسز "لي" ؟

قال العامل إنه لايستطيع أن يجزم بذلك ، ولكنها ترتدي عباءة قرمزية مثل تلك التي تلبسها المسز "لي" .. وكرر ما قاله لنا من قبل .. رأى السيدة تركب حصانها .. ثم رأى الجواد بعد ذلك يعود إلى الغابة ..

استدعاني القاضي بعد ذلك ووجه إلى بضعة أسئلة :

– حول المسز "لي" .. سألني عما إذا كنت وزوجتي نعرف العجوز بمجرد رؤيتها ووددت بالإيجاب .. ثم سألني عما إذا كنت قد تبادلت الحديث معها ، وقلت إنها تحدثت معنا بضع مرات .. وسأل عما إذا كانت هددت زوجتي ، ترددت برهة قبل أن أقول ببطء :

– نعم .. ولكنني لم أتصور أبداً – لم أتخيل أنها تحمل أية ضغينة لزوجتي :

وسأل القاضي : هل طلبت منها أو طلبت زوجتك منها الرحيل أو عاملتماها بخشونة عندما هددتكما ؟

وقلت : كان العدوان من جانبها هي ..

– هل خطر ببالك أنها قد تكون مختلة العقل ؟

– نعم كانت تعتقد أن الأرض التي أقمنا عليها بيتنا ملك لها أو لقبيلتها .. وأعتقد أن تلك الفكرة كانت مسيطرة عليها .

سألني عما إذا كانت العجوز قد اعتدت على زوجتي بدنياً وقلت إنها لم تفعل أكثر من التحذير مثلما يفعل الغجر .. وعاد القاضي يسألني : ألم تذكر كلمة الموت ؟ وقلت : بلى .. أعتقد أنها ذكرت الكلمة ولكننا لم نأخذ الأمر على محمل الجد .. ثم استدركت وقلت : أنا لم أكترث بذلك ..

وسأل القاضي : وبالنسبة لزوجتك ؟

– كانت زوجتي تشعر بالفزع ولكنني أعتقد أن السيدة العجوز لم تكن مسؤولة عما تقوله أو تفعله ..

أصدر القاضي حكمه بالتأجيل لمدة أسبوعين .. وكانت الأدلة كلها تشير إلى أن الوفاة حدثت قضاء وقدرا ، ولكن لاتوجد أدلة تشير إلى كيفية وقوع الحادث .. وقال القاضي إنه يؤجل استكمال التحقيق حتى تحضر المسز "لي" وتدلي بشهادتها .. ذهبت في اليوم التالي للميجور "فيليبوت" وقلت له بصراحة إنني في حاجة إلى استشارته .. سألته عما إذا كانت المسز "لي" تستطيع بوسيلة شريرة أن تتسبب في وقوع الحادث وقال إنه لايعتقد ذلك ، فلابد من وجود دافع قوي لدى الغجرية العجوز للانتقام من "إيللي" ، وهو لايرى ثمة دافعا

للانتقام .. أخبرته أن العجوز كانت تهدد "إيللي" وتطلب منها الرحيل في كل مرة تراها ، قلت له : لايمكن أن تتخيل الظروف التي التقينا فيها بالغجرية العجوز .. انفجرت فجأة ضاحكاً في هستيرية .. ولكنني سرعان ما تمالكت أعصابي .. كنت أشعر أنني على حافة انهيار عصبي .. رمقني الميجور بعطف وانتظر حتى تمالكت رباطة جاشي وقلت : تقابلنا هنا .. في أرض الغجر .. كنت أقرأ لوحة إعلان عن مزاد وسرت مصعداً في الطريق بدافع الفضول وعندئذ رأيتها لأول مرة .. كانت واقفة تحت شجرة .. فزعت لرؤيتي .. وربما كانت هي التي أفزعتني .. هكذا بدأت القصة .. هكذا جئنا لنعيش في هذا المكان الملعون ..

وسألني : هل داخلك الإحساس طول الوقت أن سوء الحظ يلازم هذا المكان ؟

وقلت له :

– لا .. لا أدري في الواقع .. ولكنني أعتقد أنها كانت تعلم .. كانت تعيش طول الوقت في رعب .. أعتقد أن شخصاً كان يتعمد إدخال الرعب إلى قلبها ..

سألني بحدة ماذا تعني بهذا ؟ من الذي كان يفزعها ؟

– الغجرية وإن لم أكن واثقا من ذلك .. كانت تترقبها لتخبرها أن سوء الحظ يلازم هذا المكان ولابد لها من تركه ..

قال الميجور غاضبا : كنت أتمنى لو أنكم أخبرتموني بذلك من قبل .. كنت حدثت "إستر" العجوز وطلبت منها ألا تفعل ذلك .

وسألته : لماذا كانت تفعل ذلك ؟

وقال : تحب أن تظهر للناس أهميتها .. وهي تحب إما أن تحذر الناس أو تقرأ لهم الطالع وتتنبأ لهم بحياة سعيدة .. إنها تدعي أنها تعرف الغيب .

وقلت له ببطء : فلنفترض أن إنسانا ما كان يدفع لها بعض النقود .. سمعت أنها تحب المال ..

– نعم .. إنها مولعة بالمال .. لو أن أحدا دفع لها – ولكن .. من الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك ؟

قلت له : السيرجنت "كين" ..

هز الميجور رأسه وقال بارتياب : هكذا .. ولكنني لا أصدق أنها كانت تتعمد إفزاعها إلى الحد الذي ينتهي بوقوع حادث ..

وقلت : ربما فعلت شيئاً أفزع الجواد .. لقد أحسست أنها تضمر بالفعل الحقد لسبب ما على "إيللي" .. هل كان هذا المكان ملكا لها ؟

– لا .. ربما طلبت السلطات المختصة من الغجر الرحيل عن هذا المكان أكثر من مرة .. ولكنني أشك في أن ذلك ترك في نفوسهم مثل هذه المرارة ..

قلت إن الغجرية ربما كانت غاضبة لسبب لا نعرفه ، وسألني : أي سبب ؟

فكرت برهة ثم قلت :

فلنفترض أن شخصاً كان يدفع لها المال لتفعل ما كانت تفعله .. ماذا كان هدف هذا الشخص ؟

فلنفترض أنه كان يريد منا أن نترك المكان .. لقد ركزوا على "إيللي" وحدها لأنهم يعرفون أنني لن أخاف ، على العكس من "إيللي" .. إذا كان الأمر كذلك فلابد أن الهدف كان عرض الأرض للبيع مرة أخرى ..

ومعنى هذا أن شخصاً يريد أرضاً ..

قال "فيليبوت" : افتراض منطقي .. ولكنني لا أرى دافعاً لذلك ..

قلت : ربما كانت الأرض غنية بثروة معدنية لا يعرف أحد شيئا عنها .. أو يوجد كنز مدفون فيها .. مال سرقته عصابة من أحد البنوك وأخفته في باطن الأرض .. كان "فيليبوت" يهز رأسه ولكن ليس بالعنف السابق وقلت : الاقتراح الثاني أن نتعرف على الشخص الذي يدفع المال للمسز "لي" .. ربما كان عدواً غير معروف "لإيللي" ..

شكرت الميجور لاستماعه لي ، وقال إنه كان يتمنى أن يعاونني .. توجهت نحو الباب وتحسست جيبي لأتحسس الشيء الذي أضعه في جيبي ، واستدرت فجأة وعدت إلى الحجرة وقلت للميجور :

– هناك شيء أحب أن أطلعك عليه .. كنت أنوي عرضه على السيرجنت "كين" لعله يستخلص منه شيئا .. أخرجت من جيبي قطعة حجر ملفوفة بورقة عليها كلمة تحذير ، وقلت له إن شخصاً ألقى هذا الحجر من النافذة هذا الصباح ..

وإنني عندما سمعت تحطم الزجاج عثرت على الحجر .. وإن حجرا ألقي من النافذة قبل ذلك بعد وصولنا إلى المكان ولا أعرف ما إذا كان الفاعل هو نفس الشخص .. لبس "فيليبوت" نظارته ليقرأ الرسالة التي كانت تقول : "إن التي قتلت زوجتك امرأة " .

قال الميجور بدهشة : شيء غريب .. هل كانت الرسالة الأولى مكتوبة على الآلة الكاتبة ؟

قلت : لا أذكر .. كانت مجرد تحذير لنترك المكان ..

– هل تعتقدأن الذي قذف الحجر شخص يعرف شيئا ؟

وقلت له : ربما كان مجرد شخص عابث .. هذا يحدث كثيرا في الريف ..

أعاد إلي الورقة وهو يقول :

– أعتقد أنك على حق .. يجب أن تسلمها للسيرجنت "كين" .. إنه يعرف خيراً مني هذه الرسائل المجهولة ..

وجدت السيرجنت "كين" في مركز الشرطة وأبدى اهتماماً شديداً ، وسألته عن رأيه فقال :

– ربما كان القصد إلصاق التهمة بشخص معين ..

– هل تعني بذلك المسز "لي" ؟

– لا .. ربما شاهد أحدهم سيدة بالقرب من مكان الحادث .. ولكنني أعتقد أن المقصود سيدة أخرى غير المسز "لي" ..

وسألته : وماذا بشأن الغجرية ؟ ألم تعثروا عليها بعد ؟

هز رأسه ببطء وقال : إنهم يعرفون المكان الذي تذهب إليه حيث يوجد بعض أفراد من قبيلتها ، ولكنهم لم يعثروا عليها هناك .. وقد قيل له إن أحداً لم يرها في ذلك المكان .. أحسست بشيء غريب يتوارى وراء كلماته ، وقلت له : لست أفهم ماتعنيه .. وقال الشرطي : لقد كانت تهدد زوجتك وتخيفها .. لعلها سمعت بما حدث وتدرك أن الشرطة سوف تبحث عنها .. لهذا ذهبت إلى مكان بعيد ..

وقلت : ولكنكم سوف تعثرون عليها ؟

– بالتأكيد .. ولكن ذلك قد يستغرق بعض الوقت أنت تعرف أنني كنت أتسائل

عما إذا كان شخص يدفع لها لتفعل ما فعلته ..

– هذا سبب يدفعها إلى الابتعاد بقدر المستطاع ..

– لاتنس أن هذا الشخص أيضاً يفكر في إبعادها .. قلت ببطء : تقصد الشخص الذي كان يعطيها المال ..

مارأيك لو أنها كانت سيدة ؟

قال السيرجنت : ولنفترض كذلك أن شخصاً آخر لديه فكرة عن الموضوع .. لهذا أرسلوا الخطابات المجهولة حتى تخاف السيدة أيضاً .. وعلى أي حال .. حتى لو كانت هي التي طلبت من الغجرية إدخال الرعب في قلب زوجتك فما كانت تستهدف موتها في النهاية ..

قلت : كلا .. لم يكن الموت هو الهدف .. كان مجرد إفزاعنا .. حتى نترك المكان..

– والآن .. من الذين سيخيفونه ؟ السيدة التي تسببت في الحادث وهي مسز "لي" فلنفترض أنها لم تكن الفاعلة .. سوف تعترف على الأقل بأنها كانت تأخذ نقوداً لكي تفعل ذلك وسوف تذكر الاسم .. اسم من كان يعطيها النقود وهناك إنسان لا يجب أن يحدث ذلك .. أليس كذلك يامستر "روجرز"؟

– تقصد السيدة المجهولة التي لانعرف عنها شيئا؟

– رجل أو سيدة .. هذا الشخص لابد وأنه يسعى إلى التخلص منها بسرعة.. أليس كذلك ؟

سألته عما إذا كان يقصد أن الغجرية قد تكون ميتة الآن ، وقال إن هذا احتمال قائم .. ثم غير دفة الحديث وسألني عن المبنى الذي يشبه المعبد فوق الربوة .. وأخبرته أنني أصلحت المكان وزودته مع زوجتي ببعض الأثاث الخفيف لأننا كنا نذهب إليه أحياناً لقضاء بعض الوقت .. وقال السيرجنت "كين" إنهم ذهبوا إلى المبنى ووجدوا الباب مفتوحاً ، وقلت له إننا لم نكن نقفل الباب لأنه لايحتوي على أشياء ذات قيمة .. وقال السيرجنت :

– فكرنا في أن المسز "لي" ربما كانت تستخدمه ولكننا لم نعثر لها على أثر .. ولكننا عثرنا على هذا وكان في نيتي أن أطلعك عليه ..

فتح درج مكتبه وأخرج منه ولاعة ذهبية .. كانت ولاعة نسائية وعليها حرف منقوش بقطع الماس .. الحرف "ك" .. وسألني عما إذا كانت الولاعة خاصة بزوجتي .. وقلت إنها لاتخص زوجتي كما أنها لا تخص المس "أندرسون" لأن اسمها "جريتا" .. وقال السيرجنت إنهم عثروا عليها هناك ومن الواضح أنها ولاعة ثمينة كررت : الحرف "ك" .. لا أعرف أحداً يبدأ اسمه بالحرف "ك" سوى "كورا" زوجة أب "إيللي" .. ولكنني لا أتخيل كيف تصعد "كورا" إلى ذلك المكان وهي لم تبق معنا سوى فترة قصيرة منذ شهر .. ولا أذكر أنني رأيتها تستخدم ولاعة .. ربما لم ألاحظ ولكن المس "أندرسون" ربما كانت تعرف ..

ناولني الولاعة لأعرضها على "جريتا" وقلت له :

– سأفعل .. ولكن إذا كانت خاصة بـ "كورا" فالأمر يبدو غريباً لأننا لم نرها عندما كنا في المبنى مؤخراً .. هل كانت ملقاة على الأرض ؟

– نعم .. بالقرب من الأريكة .. بالتأكيد يستطيع أي إنسان أن يستخدم ذلك المبنى .. ربما عاشقان وجدا المكان مناسباً للقاء في أي وقت .. أعني السكان المحليين .. ولكن ليس من المحتمل أن يقتني أحدهم ولاعة ثمينة كهذه ..

قلت : هناك "كلوديا هارتكاسل" .. ولكن ماذا تفعل "كلوديا" في هذا المكان ؟

– ألم تكن صديقة لزوجتك ؟

– نعم .. كانت أفضل صديقات "إيللي" هنا وهي تعلم أننا لا نمانع في استخدامها المكان في أي وقت تشاء .. وقال السيرجنت "كين" :آه ..

نظرت إليه بخشونة ثم قلت :

هل تفكر في أن "كلوديا" كانت عدوة لـ "إيللي" ؟

– أوافقك على أنه لايوجد مبرر لمثل هذه العداوة .. ولكنك لاتستطيع أن تجزم بشيء عن النساء ..

اندفعت قائلاً : أعتقد .

ثم توقفت عن إكمال الجملة لأن الفكرة التي خطرت ببالي كانت غريبة .. واستحثني السيرجنت "كين" لأتكلم ، وقلت :

– أعتقد أن "كلوديا هاردكاسل" كانت متزوجة من رجل أمريكي اسمه

"لويد" .واسم الوصي الرئيسي على زوجتي في أمريكا اسمه "ستانفورد لويد" .. ولكن يوجد كثيرون ولاشك يحملون اسم "لويد" .. ولكن ما دخل كل هذا بموضوعنا ؟

– لايبدو من المحتمل أن – ولكن –

توقف السيرجنت عن الاسترسال في الحديث ، وقلت له :

من الغريب أنه خيل إلي أنني رأيت "ستانفورد لويد" هنا في يوم وقوع الحادث .. كان يتناول الغداء في مطعم "جورج" في "بارنتجتون" .

– ألم يأت للبيت لزيارتك ؟

هززت رأسي علامة النفي وقلت إنه كان مع سيدة تشبه مس "هاردكاسل" وأنني ربما كنت مخطئاً في تصوري وأخبرته أن أخاها هو الذي شيد بيتنا .

– هل المس "هاردكاسل" مهتمة بالبيت ؟

– لا .. لا أعتقد أنها تحب الطراز المعماري الذي يصممه أخوها ..

وقفت لأنصرف وأنا أقول :

– حسن .. لن آخذ من وقتك أكثر من هذا .. حاول العثور على الغجرية .

– لن نتوقف عن البحث عنها .. وقاضي التحقيق يريد ذلك أيضا .

غادرت مركز الشرطة .. ومن الغريب أن يلتقي الإنسان بنفس الشخص الذي يفكر فيه .. كانت "كلوديا هاردكاسل" خارجة من مكتب البريد وأنا أمر أمامه .. توقف كلانا وقالت إنها تشعر بالارتباك وهي تلتقي بزوج فقد زوجته مؤخرا .. وقلت لها :

– لقد كنت لطيفة للغاية مع زوجتي .. ولقد كنت شاكراً لك هذا الفضل .

قالت إن لديها سؤالاً تريد أن توجهه لي قبل سفري إلى أمريكا حيث إنها سمعت أنني مسافر في القريب العاجل .

وقالت : إذا كنت تفكر في بيع البيت أرجو أن تعتبرني أول من يقدم عرضه لترفضه ..

وقلت بدهشة : أنت ترغبين في شراء البيت ؟!

ولكنني كنت أظنك لاتحبين هذا الطراز المعماري ..

– أخبرني "رودلف" أخي أنه أحسن بيت أقامه .. أتوقع أن تطلب فيه ثمنا كبيرا .. أخذت أفكر في دهشة لماذا ترغب في شراء البيت .. وما الصلة الحقيقية التي تربطها بأخيها "رودلف" .. أهي مغرمة به حقا ؟ كنت أظنها في بعض الأحيان تكرهه .. هززت رأسي ببطء وقلت لها : إنها تتخيل أنني أريد التخلص من البيت بسبب موت "إيللي" .. ولكنني لست عازماً على بيع المنزل بحال من الأحوال . لأنه المكان الذي عشت فيه مع "إيللي" في سعادة ... واستجمعت أطراف شجاعتي وقلت :

– ربما لم يكن الأمر يعنيك .. ولكنك تزوجت قبل ذلك .. هل كان اسم زوجك "ستانفورد لويد" ؟

حدقت في وجهي برهة دون أن تجيب ، ثم قالت :

– نعم .. وابتعدت عني مسرعة ..

الفصل الثالث عشر

الارتباك .. هذا كل ما أتذكره بعد عودتي .. حاصرتني أسئلة رجال الصحافة وانهالت علي عشرات الخطابات والبرقيات .. وتولت "جريتا" هذا الجانب بكفاءة واقتدار .. واقتنعت بالسبب الذي جعل "إيللي" تعتمد عليها اعتمادا كليا ..

وكان أول أمر مفزع هو اكتشافي أن جميع أفراد أسرة "إيللي" موجودون في انجلترا . كانت "كورا" يوم وفاة "إيللي" موجودة في مكان لايبعد عنا بأكثر من ثمانين كيلو مترا .. كانت تبحث عن منزل تقيم فيه أثناء وجودها في انجلترا ..

أما "ستانفورد لويد" فقد وصل بالطائرة لحضور اجتماع عمل في لندن .. وعرفت الأسرة خبر وفاة "إيللي" من الصحف المحلية لا من البرقيات التي أرسلناها لهم . وثار جدل شديد حول المكان الذي تدفن فيه "إيللي" .. كنت أرى دفنها في انجلترا حيث عشنا معا ، ولكن الأسرة اعترضت بشدة وتمسكوا بدفنها بجوار أفراد الأسرة في الولايات المتحدة ..

جاءني "أندرو لبنكوت" ليتحدث معي في هذا الموضوع وكان هادئاً ومنطقياً في مناقشته .. سألني عما إذا كانت "إيللي" قد حددت المكان الذي تحب أن تدفن فيه ؟ وقلت له في ثورة إن الإنسان في سن الواحدة والعشرين لايفكر في الموت .. وقال "لبنكوت" :

– من الطبيعي أن تدفن "إيللي" حيث يرقد أسلافها .. كما أنك سوف تكون مضطرا إلى الذهاب بدورك إلى أمريكا .. أنت تعلم أن هناك مصالح كثيرة ينبغي لك أن تهتم بها .

وسألته : أي مصالح ؟ وما شأني بالأعمال ؟

– أمامك أعمال كثيرة لابد من إدارتها .. ألا تدرك أنك المستفيد الرئيسي في ظل الوصية ؟

– هل تعني أنني المستفيد الأول ؟

– لا أعني المستفيد وفقا للوصية .

قلت إنني لا أعرف أنها تركت وصية ؟ وقال :

– كانت "إيللي" شابة عملية .. لقد عاشت في وسط الأعمال ومن ثم كتبت وصيتها بمجرد بلوغها سن الرشد وزواجها منك .. ذهبت إلى واحد من كبار المحامين في لندن وكلفته بكتابة وصية وأمرته بإرسال نسخة منها إليّ .. لهذا أنصحك عند ذهابك إلى الولايات المتحدة أن تعهد بأعمالك إلى واحد من المحامين المشهورين بالسمعة الطيبة .. وسألته : لماذا ؟ وقال إنه في حالة وجود مثل هذه الثروة الضخمة من الأموال والعقارات والأعمال في مختلف الفروع الصناعية فلابد من وجود مستشار فني بجواري ..

قلت له إنني لست خبيرا في مثل هذه الشؤون وإنني أفضل أن أعهد إليك بهذه المهمة ؟ وقال : تستطيع أن تفعل ذلك .. إنني أمثل بالفعل بعض أفراد الأسرة .. وإذا وضعت مصالحك بين يدي ، فإنك بذلك تكون قد عهدت بالأمر إلى محام قدير ..

وقلت له : شكرا لك . أنت لطيف للغاية ..

سكت "لبنكوت" قليلا وهو يتفرس في وجهي ثم قال :

– أنصحك بأن تكون شديد الحذر بالنسبة لأي أوراق توقع عليها .. اقرأ أي شيء يعرض عليك بدقة قبل التوقيع .

سألته عما إذا كانت قراءتي لأي مستند يعرض عليّ سوف تفيد في شيء ؟ وقال :

– إذا وجدت شيئاً غير واضح تماما فمن الأفضل أن تستعين بمستشار قانوني..

سألته بقلق : هل أفهم من هذا أنك تحذرني من شخص أو إنسان بعينه ؟

– لا أستطيع أن أجيبك عن هذا السؤال .. كل ما أستطيع قوله .. عندما يتعلق الأمر بمبلغ ضخم من المال فلا تثق في مخلوق أبداً ..

هكذا كان يحذرني من شخص ولكنه لم يكن يريد التصريح بالاسم . أهي "كورا" ؟ أم لعله يشك في "ستانفورد لويد" ؟ الذي تولى إدارة الأعمال لفترة طويلة .. أم هو العم "فرانك" الذي يحتمل أن يتصل بي ومعه مجموعة من

الوثائق .. رأيت نفسي فجأة .. إنسانا فقيرا بريئا يسبح في بركة تحيط به مجموعة من التماسيح المفترسة وكلها تضحك له ضحكة مزيفة .. وقال المستر "لبنكوت" :

– العالم مكان فيه شر كثير ..

وسألته فجأة : هل يستفيد أحد من موت "إيللي" ؟

نظر إلي بحدة وقال : هذا سؤال شديد الغرابة .. لماذا تسأل هذا السؤال ؟

قلت له إنه مجرد سؤال خطر ببالي وقال : أنت المستفيد .. قلت له إنني أعرف ولكنني أسأل عما إذا كان هناك شخص آخر يستفيد ؟

سكت "لبنكوت" فترة طويلة ثم قال :

– إذا كنت تقصد أن "فينيلا" خصت بعض الأشخاص ببعض الهبات فإني أقول لك : إنها أوصت بمبالغ زهيدة لبعض الخدم .. كما أوصت للمس "أندرسون" ولكنه مبلغ يسير لأنها سبق أن خصصت لها دخلا مدى الحياة .. لقد كنت زوجها وليس لها أقارب من الدرجة الأولى ، ولكنني أعتقد أن سؤالك كان يعني شيئا آخر .

قلت له إنه مجرد سؤال خطر على بالي ، ولكن كلامه أثار شكوكي خاصة وأنني لا أفهم في المسائل المالية .. وقال المستر "لبنكوت" :

– إذا لم تكن حسابات "فينيلا" سليمة .. فمن المحتمل أن تكون وفاتها المبكرة لصالح شخص ما .. لن أذكر أسماء .. سوف يكون من السهل على هذا الشخص أن يتعامل مع إنسان متواضع مثلك ..

أقيمت جنازة متواضعة في الكنيسة الصغيرة .. أحسست بالكراهية نحو كل هؤلاء الأشخاص الذين اصطفوا خارج الكنيسة وهم يحملقون في وجهي .. قادتني "جريتا" من يدي وأنا أسير كالمذهول .. ولم أدرك قبل هذه اللحظة كم هي قوية ويمكن الاعتماد عليها .. قامت بكل الترتيبات .. طلبت الأزهار ورتبت كل شيء .. عرفت الآن بدرجة أفضل لماذا كانت "إيللي" تعتمد عليها اعتمادا كليا .. لايوجد في الدنيا كثيرات من أمثال "جريتا" ..

كان معظم الموجودين في الكنيسة من جيراننا .. وعندما عدت إلى البيت

أخبرني "كارسون" أن سيدا ينتظرني في غرفة الجلوس ؟ وقلت له إنني لاأستطيع استقبال أحد اليوم ، وقال إن السيد يقول إنه قريب .. تذكرت فجأة الرجل الذي رأيته في الكنيسة .. قدم لي "كارسون" بطاقة تحمل اسم المستر "ويليام ر. باردو" هززت رأسي وسلمت البطاقة "لجريتا" وسألتها عما إذا كانت تعرف صاحب البطاقة وقالت : بالتأكيد .. إنه العم "روبن" .. ابن عم "إيللي" الذي حدثتك عنه .. تذكرت لماذا بدا الوجه مألوفا لي .. كانت صورته الفوتوغرافية بين مجموعة الصور التي تضعها "إيللي" في غرفة الجلوس لأقاربها .. قلت للخادم إنني سأقابله .. ذهبت إلى غرفة الجلوس ووقف المستر "باردو" ليستقبلني وقال :

– "مايكل روجرز" ؟ ربما لم تكن تعرف اسمي ولكن زوجتك ابنة عمي .. كانت تدعوني دائما بالعم "روبن" .. هذه أول مرة أراك منذ زواجكما ..

وقلت له : إنني أعرفك بالتأكيد ..

لا أعرف كيف أصف "روبن باردو" .. كان رجلا ضخما عريض الوجه له نظرات شاردة ولكنك سرعان ما تشعر نحوه بالألفة .. وقال :

كان موت "إيللي" صدمة عنيفة لي ..

وقلت له : فلننس ذلك .. لا أحب أن أتحدث في هذا الموضوع .. قلت له عندما دخلت "جريتا" الحجرة : هل تعرف المس "أندرسون"؟

وقال : بالتأكيد .. كيف حالك يا "جريتا" ..

وقالت له "جريتا" : لابأس ..

قلت له : لقد رأيتك في ذلك اليوم ..

وقال : – حقا ؟ أين ؟

– في مزاد في مكان يسمى "بارينجتون مانور" ..

وقال : تذكرت الآن .. نعم .أتذكر وجهك الآن .. كنت مع رجل في حوالي الستين من عمره له شارب بني اللون ..

وقلت : نعم .. ميجور "فيليبوت" . وقال : كنتما تبدوان في حالة نفسية طيبة..

وقلت : نعم .. كنا في أفضل حال ..

– بالتأكيد .. لم تكن قد علمت بعد بما حدث .. ألم يكن ذلك في يوم وقوع الحادث ؟

– نعم .. كنا نتوقع حضور "إيللي" لتشاركنا الطعام ..

– مأساة .. فاجعة حقا .. وقلت له : لم تكن لدي فكرة أنك موجود في إنجلترا .. هل كانت "إيللي" تعلم ؟

قال : لا .. لم أكتب لها .. في الواقع لم أكن أعرف الوقت الذي سأقضيه هنا .. ولكن مهمتي انتهت في وقت مبكر عما كنت أقدره .. وفكرت في المجيء بعد انتهاء المزاد .. سألته : هل جئت من أمريكا في مهمة عمل ؟

– نعم .. إلى حد ما .. كانت "كورا" تريد استشارتي بشأن البيت الذي تريد شراءه هنا .. أخبرني في تلك اللحظة عن المكان الذي كانت تقيم فيه "كورا" على مقربة من بيتنا ، سألته : في أي فندق ؟ وقال إنها لم تنزل في فندق وإنما كانت تنزل مع صديقة لها تدعى "هارد كاسل" .. سألته بدهشة : "كلوديا هارد كاسل" ؟ أجاب بالإيجاب وقال إن "كورا" كانت تعرفها جيدا عندما كانت في الولايات المتحدة . سألت "جريتا" عما إذا كانت تعرف شيئا عن الموضوع وقالت إنها لم تسمعها تتحدث عن ذلك . ولعل هذا هو سبب عدم مجيئها في ذلك اليوم .. وقالت إنها اتصلت بالبيت بعد انصرافها وقالت إن زائرة أمريكية وصلت فجأة ومن ثم لاتستطيع الخروج .. وقلت : إذن فقد كانت الزائرة هي "كورا" ؟

وقال "روبن باردوا" : هذا واضح .. سمعت أن جلسة التحقيق تأجلت .. شرب جرعة من قدح الشاي ثم نهض قائلاً :

– لن أزعجكم أكثر من هذا .. إذا احتجتم إلي في شيء يمكن الاتصال بي في فندق "ماجستيك" في ماركت "شادويل" . شكرته .. وبعد خروجه قالت "جريتا" :

– ماذا يريد ؟ ولماذا جاء ؟ لماذا يعودون جميعاً من حيث أتوا ؟

وقلت : إنني دهش .. هل كان "ستانفورد لويد" الذي رأيته في مطعم "جورج" .

– قلت : إنه كان مع سيدة تشبه "كلوديا" .. ربما جاء ليقابلها وجاء "روبن" ليقابل "كورا" ..

وقلت : إنني لا أحب ذلك .. وجودهم جميعاً في ذلك اليوم ..

قالت "جريتا" إن مصادفات كهذه تحدث .. وكانت كعادتها مبتهجة وتتحدث بطريقة منطقية ..

الفصل الرابع عشر

لم يعد لدي ما أفعله في أرض الفجر .. تركت البيت تحت رعاية "جريتا" وأبحرت إلى نيويورك لأشارك في المهمة التي كنت أعرف مقدماً أنها ستكون فظيعة .. حذرتني "جريتا" من أنني سوف أجد نفسي كالوحش الذي يطارده الصيادون في الغابة .. كانت "جريتا" على حق .. وجدت نفسي في غابة بالفعل .. أحسست كأن البنادق مصوبة إلي من كل اتجاه .. ربما كنت واهماً .. ولكنني أذكر ذهابي إلى المحامي الذي عينه لي المستر "لبنكوت" .. كنت قد تلقيت نصيحة بالتخلص من بعض الأسهم الخاصة بالمناجم ، وسألني المحامي عمن نصحني بذلك وقلت إنه "ستانفورد لويد" وقال الرجل :

– حسن .. يجب أن ندرس الموضوع .. لابد أن رجلا مثل المستر "لويد" يعرف..

ثم قال لي بعد ذلك : لاداعي للتسرع في البيع .. تمسك بهذه الأسهم ..

داخلني عندئذ إحساس بأنني كنت على حق في شكوكي .. كان الجميع يتربصون بي .. كانوا كلهم يعرفون أنني إنسان ساذج في الأمور المالية ..

كانت الجنازة فخمة .. تكدست باقات الورد في المدفن .. وكان المدفن نفسه أقرب إلى حديقة غناء .. وكان القبر من الرخام .. ربما كانت "إيللي" تكره ذلك ولكنني أعتقد أن أسرتها كان يحق لها أن تعنى بمثواها الأخير .. وتلقيت بعد أربعة أيام من وصولي إلى نيويورك أخباراً من "كنجستون بيشوب" .تم العثور على جثة المسز "لي" في الطرف الأقصى من المحجر المهجور على جانب التل .. حدثت الوفاة منذ بضعة أيام .. وقعت قبل ذلك بضعة حوادث في نفس المكان وكان المجلس المحلي قد أوصى بإقامة سور حول المكان ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .. صدر حكم بأن الحادث قضاء وقدر .. وتجددت التوصية بإقامة سور .. وتم العثور في كوخ المسز "لي" على مبلغ ثلاثمائة جنيه .. وأرسل إلي الميجور "فيليبوت" بطاقة بريدية قال لي فيها : أنا واثق أنك ستشعر بالأسى عندما تعرف أن "كلوديا هاردكاسل" قد لقيت حتفها بالأمس عندما سقطت من

فوق ظهر حصانها .. "كلوديا" ماتت ؟

لم أستطع أن أصدق ! سرت في بدني رجفة .. شخصان يموتان خلال أسبوعين أثناء ركوب الخيل .. مصادفة غريبة ..

لا أريد أن أركز على الفترة التي قضيتها في نيويورك .. لأنني كنت غريباً في عالم لا أمت له بصلة .. إن "إيللي" التي كانت تخصني لم تكن هناك .. لم أعد أراها الآن سوى فتاة أمريكية ..

وريثة لثروة ضخمة محاطة بأصدقاء وأقارب من بعيد ، فرد من أسرة عاشت هناك لمدة خمسة أجيال .. وقد عادت الآن إلى موطنها لتدفن مع أسلافها .. ارتحت لذلك الخاطر لأنني ماكنت أشعر بالراحة لو أنها دفنت في مقبرة صغيرة في غابة الصنوبر على حافة القرية .. كلا .. ما كنت لأعرف طعم الراحة .. وهمست لنفسي في أسى :

– عودي إلى حيث تنتمين يا "إيللي" ..

ورنت في أذني الأغنية التي سمعتها تغنيها :

في كل ليلة وفي كل صباح .

يولد البعض في أحضان السعادة والهناءة ..

وفكرت .. هذا صحيح بالنسبة لك يا "إيللي" .. لقد ولدت للسعادة والهناءة .. عرفت السعادة والهناءة في أرض الفجر إلا أن تلك السعادة لم تدم طويلا .. وقد انتهت الآن .. وقد عدت إلى المكان الذي لم تعرفي فيه كثيراً من السعادة..

ولكنك في وطنك على أية حال .. أنت بين قومك ..

فكرت فجأة .. ترى أين أكون عندما أموت ؟ في أرض الفجر ؟

ربما .. ربما جاءت أمي لتراني وأنا أوارى التراب إذا لم تكن قد ماتت قبلي.. ولكنني لا أستطيع أن أفكر فيها ميتة .. الأسهل أن أفكر في موتي أنا .. نعم..

قد تأتي لتحضر دفني .. وربما لانت قسمات وجهها .. طردت تلك الخواطر.. لا أريد أن أفكر فيها .. لا أريد أن أقترب من أمي أو أراها ..

ولكن هذا الخاطر الأخير ليس صحيحاً .. لأن أمي كانت هي التي تسعى دائماً لرؤيتي ..

تخترق نظراتها أعماق نفسي .. إن الأمهات شياطين .. لماذا يشعرن أنهن يعرفن كل شيء عن أبنائهن ؟ إنهن لايعرفن .. كان يجب أن تفخر أمي بي .. وأن تكون سعيدة للحياة الرائعة التي حققتها .. كان ينبغي - عندئذ طردت تلك الخواطر من ذهني مرة أخرى .. كم من الوقت قضيت في أمريكا ؟ لاأستطيع أن أتذكر .. لقد أمضيت وقتاً رهيباً تحاصرني فيه الأنظار وتترصد حركاتي، وجوه تبتسم ابتسامات مزيفة وعيون تنبض بالحقد .. وظللت أردد طوال الوقت كلمتين لم أتوقف قط عن ترديدهما .. أنا أريد .

كان كل واحد يتظاهر بالرقة معي لأنهم يعرفون أنني غني !

وفقا لوصية "إيللي" كنت رجلاً واسع الثراء .. أمتلك أسهماً وسندات وعقارات.

ولم أكن أعرف ماذا أفعل بكل تلك الممتلكات ..

دار حديث طويل بيني وبين المستر "لبنكوت" في اليوم السابق لعودتي إلى إنجلترا أخبرته أنني أريد سحب التوكيل الصادر لـ "ستانفورد لويد" الخاص باستثمار الأموال ؟ وقال بدهشة : حقاً ! لم أدر على وجه التحديد ما يعنيه بذلك التعليق .. سألته عما إذا كان تصرفي هذا سليماً ، وقال :

- لاشك أن لديك أسبابا وجيهة ..

وقلت له : كلا ... ولكنه مجرد إحساس .. إحساس بأنه لص ..

وقال "لبنكوت" باهتمام : نعم .. أعتقد أن إحساسك له ما يبرره ..

أدركت في تلك اللحظة أنني كنت محقا .. كان "ستانفورد" يعبث باستثمار "إيللي" ..

ووقعت لـ "لبنكوت" على مستند لإلغاء التوكيل ليقوم هو بالعمل ؟ وسألته عما إذا كان يوافق وقال : إنني أستطيع أن أعتمد عليه وأوليه كامل ثقتي ، وأنه سيبذل قصارى جهده ليثبت أنه أهل لهذه الثقة ..

فهمت من لهجة حديثه أنه يكرهني وأنه لم يحبني قط ، ولكنه من الناحية

المالية سوف يفعل كل ما يستطيعه لأنني زوج "إيللي" .. وقعت له على الأوراق المطلوبة .. وسألني عن الطريقة التي سأعود بها إلى انجلترا ، وأخبرته أنني سأركب الباخرة لحاجتي إلى بعض الوقت أخلو فيه لنفسي ..

ثم سألني : وأين سيكون مقرك ؟ قلت : في أرض الغجر ..

- كنت أتخيل أنك سوف تعرض ذلك المكان للبيع ..

وقلت له : كلا .. قلت الكلمة بقوة .. لم أكن أستطيع الافتراق عن أرض الغجر.. كانت أرض الغجر جزءا من حلمي .. الحلم الذي لم يفارق خيالي منذ نعومة أظفاري ..

سألني عما إذا كنت قد عهدت لأحد بالإشراف على أرض الغجر أثناء غيابي، وقلت له إنني عهدت "لجريتا" بهذه المهمة ، وقال "لبنكوت" : آه .. نعم .. "جريتا" ..

كان نطقه بكلمة "جريتا" يحمل معنى خاصا .. كان يكره "جريتا" على الدوام، وقلت:

- كانت معاملتها لـ "إيللي" طيبة للغاية .. سهرت على تمريضها عندما مرضت.. وجاءت لتقيم معها وترعاها .. إنني لا أملك إلا أن أشعر نحوها بالامتنان . أريد منك أن تفهم هذا .. لاتستطيع أن تتخيل مساعداتها ، وكيف باشرت كل شيء بعد موت "إيللي" .. لا أدري ماذا أفعل وحدي وقال المستر "لبنكوت" :

تماماً .. تماما .. كانت لهجته جافة للغاية .

وقلت : هكذا ترى أنني مدين لها بالشيء الكثير ..

وقال مستسلما : حقاً إنها فتاة على درجة عالية من الكفاءة ، وقفت وعبرت له عن شكري ، وقال : كتبت لك رسالة قصيرة .. أرسلتها لك بالبريد الجوي على أرض الغجر ، وإذا كنت مسافراً بالبحر فسوف تجد الرسالة في انتظارك .. أتمنى لك رحلة طيبة . سألته بعد تردد عما إذا كان يعرف زوجة "ستانفوردلويد" .. فتاة تدعى "كلوديا هاردكاسل" .. وقال :

- آه .. تعني زوجته الأولى .. كلا .. لم أقابلها قط .. أعتقد أن زواجهما لم

يستمر طويلا .. وبعد الطلاق تزوج للمرة الثانية وانتهى هذا الزواج بالطلاق أيضاً .. عندما عدت إلى الفندق وجدت برقية في انتظاري .. كانت تطلب مني الذهاب إلى مستشفى في كاليفورنيا .. وكانت تقول إن صديقاً لي اسمه "رودلف سانتونكس" يرجو ذلك ، وإن ساعاته باتت محدودة ويتمنى أن يراني قبل موته ..

غيرت الحجز إلى سفينة تالية وركبت الطائرة إلى سان فرانسسكو .. كان "سانتونكس" لايزال حياً ولكن حالته كانت تتدهور بسرعة .. قيل لي إنه قد لايفيق من غيبوبته قبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، ولكنه ألح في استدعائي .. جلست بجوار سريره أراقبه .. كان يبدو معتل الصحة دائماً .. وكانت لديه شفافية ورقة .. جلست وأنا أهمس لنفسي : كم أتمني لو أنه كلمني .. أتمنى أن يقول لي شيئاً .. مجرد شيء قبل موته ..

أحسست بوحدة موحشة .. لقد هربت الآن من الأعداء ، وأنا الآن بجوار صديق هو الصديق الوحيد في الواقع .. كان الشخص الوحيد الذي يعرف عني شيئاً فيما عدا أمي .. ولكنني لم أكن أريد التفكير في أمي ..

تحدثت مع الممرضة وسألتها عما إذا لم يكن باستطاعتهم أن يفعلوا شيئاً من أجله ، ولكن الممرضة هزت رأسها وقالت : -

ربما أفاق من غيبوبته وربما لم يفق .. جلست في ترقب .. ورأيته في النهاية يتململ في رقدته ويتنهد .. رفعته الممرضة برفق شديد .. نظر إلي "سانتونكس" ، ولكنني لم أدر ما إذا كان قد عرفني أم لا .. كان ينظر تجاهي وكأنما تتجاوزني نظراته .. ثم التمعت عيناه فجأة بالبريق وخيل إلي أنه عرفني وأنه يراني .. انفرجت شفتاه وتمتم بكلمات مبهمة .. انحنيت لأسمعه ولكن الكلمات لم تفصح عن أي معنى .. ثم ارتعد جسمه فجأة وأرجع رأسه إلى الخلف وصاح بعنف قائلاً : أيها الشيطان الأحمق .. لماذا لم تسلك الطريق الأخرى؟

انهار دفعة واحدة وسكنت حركته إلى الأبد ..

لم أعرف ما يقصده .. ولا أدري ما إذا كان هو نفسه كان يعرف ما يقوله ..

تلك كانت آخر مرة رأيت فيها "سانتونكس" .. كنت أحب أن أقول له مرة أخرى إن البيت الذي شيده لي أفضل شيء حصلت عليه في الدنيا .. الشيء الذي يهمني ..

عجيب أن يكون لذلك البيت مثل هذا المعنى .. إنه رمز .. رمز لشيء تتوق إليه ، ولاتعرف ما هو على وجه التحديد .. ولكن "سانتونكس" عرفه وأعطاني إياه .. ولقد حصلت على بغيتي .. وأنا في طريق العودة إليه ..

العودة إلى البيت .. كان هذا كل ما أستطيع أن أفكر فيه عندما ركبت الباخرة..

شعرت في البداية بتعب وملل شديد .. ثم غمرتني فجأة موجة من السعادة كأنما تصدر من الأعماق .. إنني عائد إلى البيت .. عائد إلى بيتي ..

الفصل الخامس عشر

نعم .. هذا ما كان في نيتي أن أفعله .. انتهى الآن كل شيء ، آخر مرحلة في المعركة .. آخر مرحلة في الصراع .. المرحلة الأخيرة للرحلة .. خيل إلي أن وقتاً طويلاً جداً قد انقضى منذ شبابي القلق .. أيام كانت أمنيتي : أنا أريد .. أنا أريد .. ومع هذا لم يزد عمر هذه الفترة على عام .. اجتزت كل العقبات .. فكرت في ذلك وأنا راقد في كابينتي .. اللقاء مع "إيللي" .. الأوقات التي قضيناها معا في "ريجنت بارك" .. زواجنا في مكتب موثق العقود .. البيت .. البيت الذي بناه "سانتونكس" ..

بيتي .. البيت الذي أصبح ملكاً لي وحدي .. كما أردت تماماً .. لقد حصلت على كل ماتمنيته فأنذا ذاهب إليه ..

كتبت رسالة قبل مغادرة نيويورك أرسلتها بالبريد الجوي لـ "فيليبوت" . . . داخلني إحساس أن "فيليبوت" سوف يفهم في حين لا يفهم الآخرون .. كان الأسهل أن أكتب له .. كان لابد له أن يعرف على أي حال .. لابد أن يعرف الجميع .. لقد رأى بنفسه الرابطة الوثيقة بين "إيللي" و"جريتا" وكيف كانت "إيللي" تعتمد على "جريتا" ..

وفكرت في أنه ولاشك قد أدرك كيف أصبحت أنا أيضاً أعتمد على "جريتا" ، واستحالة حياتي وحدي في البيت الذي عشت فيه مع "إيللي" ما لم يكن هناك من يساعدني .. لا أدري ما إذا كنت قد أوضحت الموضوع جيدا .. ولكنني فعلت بقدر ما أستطيع . كتبت إليه أقول :"أحب أن تكون أول من يعرف .. فقد كنت رقيقا معي ، وأعتقد أنك الإنسان الوحيد الذي يفهم .. لا أستطيع أن أتحمل الحياة وحدي في أرض الغجر، وقد فكرت طوال مدة إقامتي في أمريكا، وقررت أن أطلب من "جريتا" الزواج بمجرد عودتي إلى البيت .. إنها الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أتحدث معه عن "إيللي" .. ربما لم تقبل الزواج مني .. ولكنني أعتقد أنها ستوافق .. سوف يجعل ذلك كل شيء يبدو وكأن ثلاثتنا مازلنا نعيش معاً .."

كان المفترض أن تصل الرسالة قبل رجوعي بيومين .. وبينما كانت الباخرة تقترب من الشاطئ البريطاني تمنيت لو أن "سانتونكس" كان في انتظاري ليرى كل أحلامي وقد تحقق كل شيء أردته وخططت له .. لقد انتصرت على كل من يضمرون لي الحقد وينظرون إلي على أنني من طبقة أدنى .. فأنذا عائد بالنصر .. إلى أشجار الصنوبر، والمنحنى الخطر في الطريق إلى أرض الغجر .. إلى بيتي ! الحلم الذي راود خيالي وخططت له وأردته أكثر من أي شيء آخر في الحياة .. البيت وامرأة رائعة .. المرأة التي عرفتها دائماً والتقيت بها ذات يوم .. سوف نلتقي .. لقد عرفت منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها أنها لي وأنني لها كلية وإلى الأبد .. والآن .. أخيراً .. عائد إليها ..

لم يرني أحد عند وصولي إلى "كنجستون بيشوب" وصلت مع هبوط الليل ولم أكن أريد الالتقاء بأحد من القرية .. في هذه الليلة ..

أخطرت "جريتا" بوقت وصولي وكانت في انتظاري .. أخيراً !

لقد أدينا أدوارنا بمهارة .. إنني أضحك الآن وأنا أتذكر كيف تظاهرت بكرهها .. وعدم الرغبة في مجيئها والبقاء مع "إيللي" .. نعم .. كنت شديد الحذر .. وتذكرت الشجار الذي اصطنعناه لكي تسمع "إيللي" صراخنا ..

عرفتني "جريتا" على حقيقتي منذ التقينا .. لم يتوهم أحدنا شيئاً عن الآخر.. كانت لها نفس عقليتي ورغباتي .. كنا نريد الدنيا بأسرها ولاشيء أقل من ذلك .. كنا نريد أن نتربع فوق قمة العالم .. كنا نريد تحقيق كل طموح ممكن .. كنا نريد كل شيء .. وألا نحرم أنفسنا من شيء .. أذكر كيف صارحتها بكل ما في أعماق نفسي عندما التقيت بها لأول مرة في هامبورج .. لم أخف عنها شيئاً من رغباتي المحمومة ونهمي للحياة .. وكان لديها نفس الأطماع ، وقالت لي :

- حتى تحقق كل ما ترجوه من الحياة .. لابد لك من الحصول على المال ..

وقلت لها : نعم .. ولكنني لا أعرف السبيل للحصول عليه ..

وقالت : لن تحصل عليه بغير العمل الشاق .. ولست من هذا الصنف ..

قلت : العمل ! معنى هذا أن أعمل سنوات طويلة وأنا لا أريد الانتظار حتى

منتصف العمر .. حتى يشيب شعري .. أريد المال الآن وأنا في شبابي وقوتي.. وأنت أيضاً .. أليست هذه رغبتك ؟

قالت : بلى .. وأنا أعرف السبيل إلى ذلك .. إنه سهل ويدهشني أنك لم تفكر فيه من قبل .. أنت تستطيع استمالة قلوب الفتيات بسرعة .. إنني أرى ذلك وأحسه ..

وقلت لها : هل تظنين أنني أهتم بالفتيات ؟ هناك فتاة واحدة أريدها .. أنت.. وأنت تعرفين ذلك .. عرفت ذلك منذ اللحظة الأولى .. ونحن نريد نفس الأشياء..

قالت "جريتا" : إن الأمر سهل .. كل ما عليّ أن أفعله .. أن أتزوج فتاة غنية.. واحدة من أغنى فتيات العالم ، وأنها تستطيع أن ترتب لي لقاء معها ..

وقلت لها إنها خيالية . لأنني لاأريد زوجة غنية تشتري لي ما أريده وتحقق رغباتي ولكنها تسجنني في قفص من ذهب .. تقيدني كالعبد بالسلاسل ..

فقالت إن الأمر لن يكون كذلك، لأنك لن تعيش معها طويلا .. فالزوجات يمتن ..

حملقت في وجهها دهشا فقالت :

– أراك صدمت .. لم أكن أتوقع أن تصدم ..

لم أجبها بشيء .. فقد كنت ما أزال أحب أن تبقى في صدري بعض الأسرار..

– أذكر في صباي أن صديقا لي في المدرسة أهديت له ساعة .. أحببت أن أتملك تلك الساعة .. كانت غالية الثمن .. خرجت مع صديقي ذات يوم لنتزحلق على الجليد .. لم يكن الجليد سميكاً حتى يتحمل ثقل أجسامنا .. تشقق الجليد حيث تزحلق صديقي وسقط في الماء ورأيته يتعلق بالحافة والثلج يتكسر بين يديه ..

أسرعت نحوه ورأيت الساعة تلمع في يده .. همست لنفسي :

فلنفترض أنه غاص ومات . خطرت الفكرة على ذهني بسرعة .. نزعت الساعة من يده ودفعت رأسه تحت الماء بدلا من رفعه .. لم يستطع أن يقاوم تحت سطح الجليد .. شاهدنا بعض الناس وأقبلوا نحونا وظنوا أنني أحاول انتشاله .. واستطاعوا انتشاله بصعوبة وحاولوا إجراء تنفس صناعي له ولكن

المحاولة جاءت متأخرة . خبأت كنزي في مكان خاص .. تعودت أن أخفي فيه الأشياء التي لا أحب أن تراها أمي حتى لا تسألني عن مصدرها .. عثرت على الساعة ذات يوم وسألتني :

أليست هذه ساعة "بيتر"؟ قلت .. كلا .. قايضت عليها مع زميل في المدرسة.. كنت أشعر بالعصبية دائماً وأنا أواجه نظرات أمي ..

أحسست بالارتباك عندما عثرت على الساعة .. أعتقد أنها شكت في الأمر.. وكانت ترمقني بنظراتها دون أن تتكلم .. كان الجميع يعتقدون أنني حاولت إنقاذ "بيتر" ..

ولكنني كنت أحس أنها لم تصدق .. كنت أحس في بعض الأوقات بالذنب .. ولكنني سرعان ما تغلبت على ذلك ..

حدث بعد ذلك أثناء تأدية الخدمة العسكرية أن خرجت مع زميل يدعى "ايد".. ذهبنا معا إلى أحد أندية القمار وكان حظي سيئا وفقدت كل ما معي من نقود ، في حين ربح "ايد" مبلغا كبيرا .. خرجنا من النادي وجيوبه منتفخة .. وتصدى لنا رجلان مسلحان بالخناجر وأصبت بطعنة في يدي ، بينما أصيب "ايد" إصابة غير مميتة في صدره ووقع على الأرض .. سمعنا صياح بعض الناس وعندما رآهم اللصان سارعا بالفرار .. فكرت بسرعة .. تذكرت "بيتر" .. كان رد الفعل السريع من المزايا التي أتميز بها .. نزعت الخنجر من صدر "ايد" وطعنته طعنتين قاتلتين .. وأفرغت ما في جيوبه من مال ونقلتها إلى جيوبي في لمح البصر .. يصاب بعض الأشخاص بالفزع عندما يرتكبون جريمة قتل .. ولكنني لم أفزع .. ليس في هذه المرة ..

لا أدري كيف استشعرت "جريتا" ذلك في .. لا أقصد أنها عرفت أنني قتلت نفسين ، ولكنني أعتقد أنها عرفت أن فكرة القتل لاتصدمني .. وقلت لها :

– ماهذه القصة الخيالية يا "جريتا" .. وقالت :

– إنني في مركز أستطيع معه مساعدتك .. أستطيع أن أدبر لك لقاء مع واحدة من أغنى الفتيات الأمريكيات .. أنا مسؤولة إلى حد ما عن رعايتها .. أنا أعيش معها ولي تأثير كبير عليها ..

سألتها : وهل تعتقدين أنها تنظر إلى واحد مثلي ؟ وقالت إنني أمتلك قدراً كبيراً من الجاذبية وأن الفتيات يقعن في حبي بسهولة .. أخبرتني "جريتا" أن الفتاة نشأت في ظل تربية صارمة تحرمها من لقاء الشباب الغرباء خوفاً من طمعهم في ثروتها .. وأنه لم يكن يسمح لها إلا بمقابلة أبناء مديري البنوك وكبار رجال الأعمال .. وأن الفتاة تتمنى معرفة شاب يحبها .. شاب من طراز لم تعرفه من قبل وأنني أستطيع أن أمثل أمامها دور العاشق الولهان وأوقعها في حبي وأتزوجها ..

وعندما قلت إن أسرتها لن تسمح بذلك قالت إن الأسرة لن تعرف شيئاً حتى تجد نفسها أمام الأمر الواقع .. وقلت لها :

إذن فهذه هي فكرتك ؟

تحدثنا في التفاصيل وأعددنا خطتنا .. سافرت "جريتا" إلى أمريكا ولكنها ظلت على اتصال بي .. وتنقلت بين بضع وظائف وحدثتها عن أرض الغجر ورغبتي في تملكها .. وقالت إنه مكان يصلح كبداية لقصة رومانسية .. وخططنا لكي يتم لقائي مع "إيللي" هناك .. على أن تعمل "جريتا" على إقناع "إيللي" بشراء بيت في انجلترا لتعيش فيه بعيداً عن أهلها بمجرد بلوغها سن الرشد ..

أوه .. نعم .. أعددنا الخطة .. وكانت "جريتا" ماهرة في التخطيط .. لا أعتقد أنني كنت أستطيع ذلك وحدي وإن كنت أعرف أنني أستطيع أن ألعب دوري بإتقان .. كنت أشعر بالمتعة دائماً وأنا أمثل دوراً .. وهكذا تم اللقاء بيني وبين "إيللي" .. كانت مهزلة ولكنها مهزلة جنونية لأنها محفوفة بالمخاطر. فمن الممكن أن تفشل اللعبة .. وكان الشيء الذي يثير أعصابي أنني كنت مضطراً للقاء مع "جريتا" في بعض الأوقات .. واتفقنا على أن أتظاهر بكرهها والغيرة منها ..

ونفذت ذلك بنجاح .. أذكر يوم اختلقت شجاراً معها لتسمع "إيللي" صراخنا ..

لا أدري ما إذا كنا قد بالغنا في ذلك بعض الشيء .. كنت أحياناً أشعر بالقلق خشية أن تكون "إيللي" قد ارتابت في شيء ..

كان اكتساب قلب "إيللي" سهلا .. كانت فتاة رقيقة حلوة .. إلا أنني كنت

أخشاها في بعض الأحيان لأنها تفعل أشياء دون أن تخبرني .. وأنها كانت تعرف أشياء لم أكن أتصور قط أنها تعرفها .. ولكنها أحبتني .. نعم .. أحبتني .. وأعتقد أنني أنا أيضاً أحببتها ..

لا أعني أنها كانت مثل "جريتا" .. كانت "جريتا" المرأة التي تخصني .. كانت تتميز بالأنوثة والجاذبية .. كنت أحبها بجنون وأحاول أن أكبت مشاعري .. أما "إيللي" فقد كانت شيئاً آخر .. استمتعت بالحياة معها .. نعم .. ربما بدا ذلك غريباً وأنا أعود بالذاكرة إلى الماضي .. لقد استمتعت بالحياة معها إلى أبعد حد .. إنني أسجل هذا الآن .. لأن هذا ماكنت أفكر فيه ليلة عودتي من أمريكا .. عندما رجعت وأنا أتربع على قمة الدنيا وقد امتلكت كل ماكنت أتوق إليه على الرغم من كل المخاطر .. وعلى الرغم من أنني ارتكبت جريمة جيدة ..

كانت خدعة تمت بنجاح وقد انتهى الآن كل شيء .. إنني عائد إلى أرض الغجر .. مثل ذلك اليوم بعد رؤية إعلان بيع البيت .. عند المنحنى رأيتها .. أعني "إيللي" .. كانت واقفة تحت ظل شجرة الصنوبر .. ارتاعت عندما رأتني مثلما ارتعت عند رؤيتها ..

وقف كل منا ينظر إلى الآخر برهة ثم بادرتها بالحديث وقمت بتمثيل دور الشاب الذي وقع في الحب من أول نظرة .. ومثلت الدور ببراعة ! أؤكد لك أنني ممثل بارع !

ولكنني لم أتوقع أن أراها الآن .. أعني .. لم يكن باستطاعتي أن أراها الآن.. وكيف أستطيع ؟ ولكنني كنت أراها .. كانت تنظر إلي .. إلا أن شيئاً أفزعني كثيرا .. كانت ترمقني بنظراتها ولكنها لاتراني ..

ليس من المعقول أن تكون هنا .. أعرف أنها ميتة ولكنني رأيتها .. لقد ماتت ودفنت في أمريكا .. ورغم هذا فقد كانت واقفة تحت شجرة الصنوبر كأنما تنتظر حضوري ، كان وجهها يعبر عن الحب .. نفس الحب الذي رأيته ذات يوم وهي تعزف على الجيتار ..

تسمرت في مكاني وأنا أرتجف وصحت قائلاً "إيللي" .. لم تتحرك من مكانها ظلت واقفة ترمقني بنظراتها .. نظرة مباشرة تنفذ مني .. كان ذلك ما أفزعني

أطلقت لساقي الريح .. جريت كالمجنون .. كالجبان .. حتى رأيت الأضواء تتسرب من نوافذ البيت .. سيطرت على مشاعر الخوف وأنا أرى البيت .. بيتي.. عدت إلى الشيء الآخر الذي كنت أريده أكثر من أي شيء آخر في الدنيا .. إلى المرأة الرائعة التي كنت أنتمي إليها روحاً وجسداً ..

نستطيع الآن أن نتزوج ونعيش في البيت الذي لعبنا لعبتنا من أجله ، وانتصرنا دخلت من الباب المفتوح واتجهت إلى المكتبة حيث كانت "جريتا" واقفة في انتظاري. كانت رائعة حلوة .. أحلى شيء رأيته في الوجود .. يتوهج شعرها الذهبي وتفوح منها رائحة الجمال ودعاء الجنس .. لقد حرمنا أنفسنا من متعة اللقاء فيما عدا لحظات كنا نختلسها في المبنى الذي يشبه المعبد .. ارتميت بين ذراعيها .. لقد كانت تلك أروع لحظات حياتي ..

جلست ودفعت إلي مجموعة من الخطابات .. اخترت من بينها خطابا عليه طابع بريد أمريكي .. كان الخطاب الذي أرسله "لبنكوت" .. وقالت "جريتا" : حسن .. لقد نجحنا .. وقلت : نعم .. هذا يوم النصر ..

ضحكنا معا .. ضحكة وحشية .. كانت زجاجة الشراب تنتظرنا فوق المائدة.. فتحتها وشرب كل منا نخب الآخر .. وقلت : هذا المكان رائع .. إنه أجمل مما كنت أتخيل "سانتونكس" .. آه .. نسيت أن أخبرك أن "سانتونكس" مات .

وقالت "جريتا" : أوه .. يا للأسف .. إذن فقد كان مريضاً بحق ؟

أخبرتها أنني ذهبت لزيارته ورأيته وهو يلفظ آخر أنفاسه ، وسألتني عما إذا كان قد قال شيئاً ما وقلت :

– لم يقل شيئاً في الواقع .. قال إنني شيطان أحمق .. وأنه كان يجدر بي أن أختار الطريق الأخرى ..

سألتني عما كان يقصده بذلك وقلت إنني لا أعرف وأنه ربما كان محموماً لايدري ماذا يقول ..

– حسن .. هذا البيت يعتبر أثراً لتخليد ذكراه .. سوف نتمسك به .. أليس كذلك ؟ حملقت في وجهها وقلت : بالتأكيد .. هل تعتقدين أنني سأعيش في

مكان آخر ؟ .

وقالت "جريتا" : لانستطيع أن نعيش فيه طول الوقت .. لن نقضي العام كله مدفونين في جحر كهذه القرية ..

قلت لها إنه المكان الذي تمنيته وأردت أن أعيش فيه ، وقالت إن لدينا المال الذي يكفي للطواف حول العالم ويسمح لنا بالذهاب إلى حيث نشاء .. وسألتني: ألا تحب أن تحيا حياة المغامرة ؟

وقلت : بلى.. ولكننا سوف نعود إلى هذا المكان .. داخلني إحساس غريب بأن ثمة خطأ قد حدث .. كان هذا هو كل ما فكرت فيه .. بيتي وبيت "جريتا" .. لم تكن لدي رغبة في أي شيء آخر ولكنها كانت تتطلع إلى أشياء أخرى .. بدأت أرتجف وقالت "جريتا" :

ماذا بك يا "مايك" .. إنك ترتجف .. هل أصبت بالبرد ؟

قلت لها : لا .. ليس الأمر كذلك .. لقد رأيت "إيللي" ..

قالت بانفعال : ما الذي تعنيه ؟ وقلت لها :

– بينما كنت أسير عند منحنى الطريق رأيتها واقفة تحت شجرة الصنوبر تحدق في وجهي .. أعني تنظر تجاهي ..

وقالت "جريتا" : لاتكن غبياً .. أ .. كنت تتخيل الأشياء ..

قلت إن هذه أرض الغجر وقد رأيت "إيللي" وهي تبدو سعيدة وأنها بدت كما كانت وستبقى هنا دائماً .. هزتني من كتفي بعنف وسألتني عما إذا كنت قد شربت شيئاً قبل وصولي وقلت مضطربا :

– كلا .. انتظرت حتى ألقاك هنا .. كنت أعرف أنك أعددت لنا الشراب لنشرب معاً ..

وقالت : حسن .. إنس "إيللي" ولنشرب ..

قلت بعناد : لقد كانت "إيللي" .. وقالت إن ما رأيته كان خداع بصر .. وقلت بإصرار إنها كانت "إيللي" تنظر في اتجاهي ولكنها لاتراني .. وارتفع صوتي وأنا أقول :

– إنني لا أعرف لماذا لم تكن تراني ؟ ..

سألتني عما أقصده وقلت بصوت هامس :

– لأنني لم أكن الواقف أمامها .. لم أكن هناك .. يولد البعض للفرح والسرور .. و يولد البعض الآخر لليل ليس له آخر .. هل تذكرين كيف كانت تجلس على هذه الأريكة وتعزف على الجيتار وهي تغني بصوتها الناعم .. لاشك أنك تذكرين .. نعم .. يولد البعض لليل ليس له آخر .. هذا ماكانت تعرفه أمي عني .. كانت تعرف أنني ولدت لليل ليس له آخر .. كذلك كان "سانتونكس" يعرف .. أنني أسير في ذلك الاتجاه .. وكان يمكن تجنب هذه اللحظة .. كنت أستطيع أن أعيش مع "إيللي" في سعادة بعد زواجنا ..

وقالت "جريتا" محتدة : كلا .. لم أكن أتصور أنك من الطراز الذي يفقد أعصابه .. حملقت في وجهها وقلت :– أنا آسف يا "جريتا" .. ماذا كنت أقول؟

– لاشك أنهم حطموا أعصابك في أمريكا .. ولكنك اجتزت التجربة بنجاح .. أعني .. هل اطمأننت على كل الاستثمارات ؟

– تم تحديد كل شيء .. سويت كل الأمور لصالحنا .. لمستقبلنا الرائع ..

– أنت تتكلم بطريقة بالغة الغرابة .. أريد أن أعرف ماذا قاله "لبنكوت" في خطابه ..

فتحت الظرف ولم يكن بداخله سوى قصاصة من إحدى الصحف القديمة .. كانت صورة لشارع أعرفه حيث يبدو في الخلفية مبنى ضخم .. كانت صورة شارع في مدينة هامبورج حيث يتجه بعض المارة نحو المصور .. ويبدو في المقدم شخصان يتأبط كل منهما ذراع الآخر .. وكنت أنا أحدهما .. أما الآخر فهو "جريتا" .. إذن فقد عرف "لبنكوت" .. كان على علم طول الوقت أنني كنت أعرف "جريتا" من قبل .. لاشك أن أحدهم أرسل إليه تلك القصاصة .. وتذكرت كيف ألح علي "لبنكوت" بالسؤال عما إذا كنت قد التقيت بـ "جريتا" من قبل .. أنكرت ذلك بالتأكيد ولابد أن شكوكه قد بدأت عندئذ .

شعرت فجأة بالخوف من "لبنكوت" .. لا أعتقد أنه يشك في أنني قتلت "إيللي" .. ورغم هذا فهو يرتاب في شيء .. وقلت لـ "جريتا" : كان يعرف طول الوقت أنني أكره ذلك الثعلب العجوز .. وأنه يبادلني كرها بكره .. وعندما يعرف

أننا سوف نتزوج فسوف تزداد شكوكه ويتأكد أننا عاشقان ..

– وبعدها يا "مايك" .. لاتكن مثل الأرنب المذعور .. لقد كنت معجبة بك لرباطة جأشك ولكنك الآن تنهار .. إنك تخشى كل إنسان ..

طلبت منها أن تتوقف عن هذا الكلام وقلت : ليل ليس له آخر .. لم يكن باستطاعتي أن أفكر في شيء آخر .. ماذا تعنيه تلك الكلمات ؟ الظلام .. إنني لست موجودا ليراني أحد .. إنني أستطيع أن أرى الميت ولكن الميت لايستطيع أن يراني رغم أنني على قيد الحياة .. الرجل الذي أحب "إيللي" ليس موجودا في الواقع .. لقد دخل ليلا ليس له آخر بمحض إرادته .. نكست رأسي وأنا أقول مرة أخرى :

– ليل ليس له آخر !

طلبت مني "جريتا" بعصبية أن أتوقف عن ترديد هذه الكلمات .. وعدم الاستسلام لتلك الخرافات ، وقلت لها :

– لاحيلة لي .. لقد بعث روحي إلى أرض الغجر .. لن تكون أرض الغجر مكانا آمنا ..

لم تكن آمنة لأحد من قبل .. لم توفر الأمان لـ "إيللي" ولن توفره لي .. أولك ..

سألتني عما أعنيه .. وقفت واتجهت نحوها .. لقد أحببتها .. نعم .. ومازلت أحبها بكل دوافع الرغبة الجنسية المحمومة ولكن أليس الحب والكره والرغبة شيئاً واحداً ؟

واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد .. لم يكن باستطاعتي قط أن أكره "إيللي" ولكنني كرهت "جريتا" .. وكنت أستمتع بكرهها .. كنت أكرهها بكل قلبي وبرغبة محمومة ..

لم يكن باستطاعتي أن أنتظر حتى أستخدم أساليب أكثر أمانا .. اقتربت أكثر منها وقلت : أيتها الكلبة القذرة ! أيتها الكلبة ذات الشعر الذهبي .. لست في أمان يا "جريتا" .. لست آمنة مني .. هل تفهمين ؟ لقد تعلمت كيف أستمتع بقتل الآخرين .. أحسست بتوتر في ذلك اليوم الذي ركبت فيه "إيللي" جوادها لتلقى حتفها .. أحسست بالمتعة طوال فترة الصباح .. متعة القتل .. ولكنني لم

أقترب من قبل قط من الضحية .. ولكن الوضع مختلف الآن .. أريد أكثر من مجرد معرفة أن شخصاً سوف يموت نتيجة لابتلاعه كبسولة في الفطور .. أريد أكثر من دفع سيدة عجوز من فوق الحافة في المحجر .. أريد أن أستخدم يدي..

كانت "جريتا" خائفة الآن .. هي التي كنت أنتمي إليها منذ التقينا في هامبورج ذلك اليوم وادعيت المرض وتركت وظيفتي لأبقى بجوارها .. نعم .. كنت ملكا خالصا لها حينئذ .. روحا وجسدا .. ولكنني لم أعد أنتمي إليها الآن .. كنت في طريقي إلى مملكة من نوع آخر .. المملكة التي كنت أحلم بها .. كانت "جريتا" خائفة .. وأحببت أن أراها خائفة .. ضغطت بيدي حول رقبتها ..

نعم .. حتى الآن وأنا جالس أكتب كل شيء عن نفسي – ولا أخفي عليك أنها متعة ليس بعدها متعة – أن يكتب الإنسان كل شيء عن نفسه والأحداث التي مر بها ، والمشاعر التي كان يحس بها ، والأفكار التي كانت تدور في رأسه ، وكيف كان يخدع الجميع .. نعم – كم هو رائع أن يفعل الإنسان ذلك ..

نعم .. لقد كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أقتل "جريتا" ..

الفصل السادس عشر

لايوجد شيء كثير أرويه بعد ذلك .. جلست فترة طويلة ولا أدري متى وصلوا .. ولا أعرف ما إذا كان الجميع قد وصلوا في وقت واحد ..

لاحظت أن "المعبود" جاء أولاً . أعني ميجور "فيليبوت" .. كنت أشعر بالميل نحوه دائماً .. وكان يشبه السيد من بعض النواحي .. فقد كان شديد العطف، يحاول أن يفعل أفضل الأشياء للناس ..

كما ذكرت .. جلست بعد قتل "جريتا" فوق المقعد أحملق في كأس الشراب وقد كان فارغا .. كان كل شيء فارغا .. لم يكن يضيء الغرفة سوى مصباح كهربائي واحد في ركن الحجرة وكانت الشمس قد غربت منذ وقت طويل .. جلست وأنا أتعجب ، ترى ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ ثم بدأ الناس يتوافدون .. جاءوا بمنتهى الهدوء . لو أن "سانتونكس" كان موجوداً لأخبرني بما ينبغي لي أن أفعله .. ولكنه مات .. لاحظت بعد برهة وصول دكتور "شو" .. جلس بجواري في هدوء كأنه ينتظر شيئاً .. فكرت بعد قليل أنه ينتظر مني أن أتكلم ، وقلت له، لقد عدت إلى البيت ..

كان هناك شخص أو شخصان يتحركان خلفي في انتظار أن يفعل الطبيب شيئاً ، وقلت : – ماتت "جريتا" .. لقد قتلتها .. وربما كان من الأفضل أن تبعدوا الجثة .. هل فعلتم ذلك ؟

رأيت ضوءاً ساطعا يغمر الحجرة .. وربما كان أحد مصوري الشرطة يصور الجثة .. وقال "شو" بحدة : ليس بعد ..

حملق الطبيب في وجهي ، وقلت له : لقد رأيت "إيللي" الليلة .. وسألني : أين؟ وقلت له :

في الخارج تحت شجرة صنوبر .. في المكان الذي التقيت معها فيه أول مرة.. لم ترني .. لم يكن باستطاعتها أن تراني لأنني لم أكن موجوداً .. ضايقني ذلك.. ضايقني كثيرا ..

وقال دكتور "شو" : كان الزرنيخ في الكبسولة .. أليس كذلك ؟

كان هذا آخر ما أعطيته لـ "إيللي" ذلك الصباح .

وقلت : كانت كبسولة للحساسية .. كانت تأخذ واحدة قبل الركوب على سبيل الوقاية .. ألم تفحص بنفسك كل الأدوية التي كانت تتناولها عندما جئت لتفحص ركبتها ؟ وقال "شو" :

لاضرر في الأقراص .. كانت الأقراص غير ضارة بالمرة وقلت له :

لقد دبرنا الأمر معاً .. أنا و "جريتا" .. ألم تكن عملية ذكية ؟

- لقد كنت ذكيا ولكن ليس إلى الدرجة المرجوة ..

- أيا كان الأمر .. لا أدري كيف عرفت ..

- عرفنا عندما وجدنا جثة أخرى .. الموت الذي لم تقصد أن يحدث ..

- "كلوديا هارد كاسل" ؟

- نعم .. ماتت بنفس الطريقة التي ماتت بها "إيللي" .. وكانت "كلوديا" تتمتع بصحة جيدة ولكنها سقطت من فوق ظهر الجواد وماتت .. في هذه الحالة تم العثورعليها بعد وقت قصير .. عثروا عليها بعد موتها مباشرة وكانت رائحة الزرنيخ لاتزال تفوح منها .. ولو أنها بقيت مثل "إيللي" في الهواء الطلق لمدة ساعتين لما ظهرت منها رائحة الزرنيخ .. لم أعرف كيف وصلت الكبسولة لـ"كلوديا" إلا إذا كنت تركت واحدة في مبنى المعبد الذي تعرف أن "كلوديا" تتردد عليه في بعض الأحيان عثرنا على بصمات أصابعها هناك كما أن ولاعتها الذهبية سقطت هناك ..

وقلت : لاشك أننا كنا مهملين .. هل اشتبهت في أن لي دخلا بموت "إيللي"؟ كان ينبغي أن تحذرني ..

- لست ضابط شرطة ..

- من أنت إذن ؟

- أنا طبيب !

قلت له إنني لست في حاجة إلى طبيب ، ثم التفت نحو "فيليبوت" وقلت له : ماذا تفعل ؟ اقترب حتى تشارك في محاكمتي .. وقال : أنا هنا كمجرد صديق

وقلت له : صديق لي ؟

وقال : بل صديق لـ "إيللي" .. لم أفهم لم يعد شيء مفهوما لي . ولكنني لم أستطع التخلص من إحساسي بالأهمية .. الجميع هنا ! شرطة وأطباء و"فيليبوت" .. كان الأمر كله شديد التعقيد .. بدأت أفقد الإحساس بترابط الأشياء .. كنت متعبا للغاية وكان من عادتي أن أستغرق فجأة في النوم عندما يحل بي التعب .

جاء كثيرون ليروني .. بينهم محامون وأطباء .. مجموعة من الأطباء .. أمطروني بوابل من أسئلتهم ولكنني لم أكن راغبا في الإجابة .. استمر أحدهم يسألني عما إذا كنت أريد شيئا ، وقلت إنني أرغب في شيء واحد .. قلم حبر وورق كثير لأكتب كل شيء .. منذ بداية الأحداث .. أردت أن أحدثهم عما كنت أشعر به وكيف أفكر .. كنت أرى قصتي مسلية وسوف تكون مسلية للآخرين .. لأنني شخصية مسلية .. وقد فعلت أشياء مسلية .. الأطباء - أو طبيب منهم على الأقل - رأى الفكرة طيبة وقلت له : أنتم تسمحون للناس أن يدلوا باعترافاتهم لماذا لا تسمحون لي بكتابتها حتى يقرأها الجميع .

سمحوا لي بالكتابة .. لم أكن أستطيع الاستمرار في الكتابة لمدة طويلة لأنني سرعان ما أشعر بالتعب .. سمعت أحدهم يقول : عدم المسؤولية عن أفعاله .. واختلف معه طبيب آخر ثم كان علي بعد ذلك أن أقف أمام المحكمة .. وطلبت منهم أن يحضروا لي أجمل حللي لأنني أردت أن أظهر أمامهم في أبهى صورة.. بدا لي أنهم سبق أن وضعوا حولي بعض المخبرين الخصوصيين لمراقبة حركاتي .. وكذلك بعض الخدم الجدد .. أعتقد أن "لبنكوت" هو الذي قام بذلك .. اكتشفوا أشياء كثيرة عني وعن "جريتا" .. شيء مضحك بعد أن ماتت ولم أعد أفكر فيها كثيرا لم تعدلها أدنى أهمية بالنسبة لي بعد أن قتلتها .

حاولت أن أستعيد لحظة الانتصار وشعوري بالزهو وأنا أخنقها .. ولكن حتى تلك المشاعر ولت ولم يعد باستطاعتي استعادتها .

أحضروا أمي لتراني فجأة ذات يوم .. وقفت تنظر إلي نظرات حزينة .. اكتفت بقولها : لقد حاولت يا "مايك" .. حاولت قدر استطاعتي أن أوفر لك الأمان ولكنني أخفقت .. كنت خائفة دائما من الفشل ...

وقلت لها : حسن يا أمي .. لم يكن خطاك .. أنا الذي اخترت طريقي .. وتذكرت فجأة ما قاله "سانتونكس" .. كان خائفا علي ولكنه لم يكن يستطيع هو أو غيره مساعدتي .. أعتقد أن مشكلتي أنني كنت أريد أشياء كثيرة على الدوام .. أريدها بالطريق السهل .. طريق الجشع .. عندما قابلتنا "إيستر" .. أنا و"إيللي" .. وحذرتها من أرض الغجر .. نبتت الفكرة في ذهني .. الغجرية العجوز جشعة أستطيع إغراءها بالمال لكي تفزع "إيللي" وتدخل في روعها أن خطراً ما يتهدد حياتها .. ظننت أن ذلك قد يصيب "إيللي" بصدمة تؤدي إلى الموت المفاجئ . ارتاعت "إيستر" للفكرة .. ارتاعت من أجل "إيللي" .. حذرتها وطلبت منها الرحيل حتى لاتحوم حولها الشكوك .. لم أفهم ذلك .. وكذلك لم تفهم "إيللي" .

أحست "إيللي" بخطر يتهددها .. وكان "سانتونكس" يعرف نوازع الشر الكامنة في أعماقي .. مثل أمي تماما .. ربما كان ثلاثتهم يعرفون .. كانت "إيللي" تعرف ولكنها لم تكترث . هذا غريب .. غريب جدا .. إنني أعرف السبب الآن .. لقد كنا في غاية السعادة معا .. كانت لدي الفرصة .. ربما كانت الفرصة تطرق باب كل إنسان مرة واحدة .. ولكنني أدرت لها ظهري .. أليس غريبا أن "جريتا" لم تعد لها أي أهمية .. وحتى بيتي الجميل لم تعد له أهمية إنها "إيللي" وحدها ولكن "إيللي" لا تستطيع أن تعثر علي مرة أخرى .. ليل ليس له آخر .. هذه هي نهاية قصتي .. في نهايتي توجد البداية .. هذا ما يقوله الناس دائماً .. ولكن ما معنى هذه الكلمات ؟ وأين بالضبط تبدأ قصتي ؟

يجب أن أحاول وأفكر .